علماء الحديث "المسلمون الغربيون المعاصرون" ومنهجهم في بحث المسائل الحديثية والعمل بالحديث الضعيف أنموذجا Jonathan Andrew Cleveland Brown

نماء محمد البنا *

ملخص

تتناول هذه الورقة البحثية أبرز عالم غربي مسلم متخصص بالحديث في وقتنا المعاصر في الولايات المتحدة الأمريكية كأنموذج لعلماء الغرب المسلمين المعاصرين للوقوف على أبرز ملامح منهجية لبحوثهم في الدراسات الإسلامية بشكل عام والدراسات الحديثية بشكل خاص. وقد تبين للباحث أن جهودا ليست يسيرة تبذل من قبل العلماء الغربيين المسلمين؛ للدفاع عن الإسلام بصورته الكلية وعن علم الحديث بصورته الدقيقة، إلا أن هناك اختلافا منهجيا ينبغي الوقوف عليه أبرزه اعتماد المنهجية التاريخية في تناول مسائل الحديث النقدية بعيدا عن عوامل أخرى يهتم بها علماء المسلمين المختصين بالحديث في الشرق، والتخصصية المهارية الدقيقة لمعظم مسائل علوم الحديث كعلم نقد الحديث سندا ومتنا وعلم العلل ودراسة الأسانيد والحكم على الأحاديث. إضافة إلى ما تسببه دقة اللغة العربية من تفاوت في التعاطي مع هذه المسائل بين علماء الشرق وعلماء الغرب.

الكلمات الدالة: علماء الغرب والشرق، الحديث النبوي، علماء الغرب المسلمين.

المقدمـة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام التامين الأكملين على المبعوث رحمة للعالمين، للعرب والعجم وللثقلين، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد،

يطلع المختص بعلوم الحديث من أهل المشرق على العديد من الدراسات الحديثية المتقدمة والمتأخرة والمعاصرة، ويكاد يكون منهج الباحثين في علم الحديث متشابها في الشكل –أو متقاربا– ومختلفا في المضمون تبعا لقوة الباحث وسعة اطلاعه واختلاف مجال اهتمامه. لكن الأمر يبدو مختلفا عندما تطلع على كتابات المختصين بالحديث من أهل الغرب المسلمين.

لقد تناول البحث في علم الحديث من علماء الغرب عدد ليس كبيرا مقارنة بالقرآن، وربما كان ذلك لدقته ولصعوبته على الناطقين بغير اللغة العربية وخاصة عبارات علماء الحديث النقدية أو مصطلحاتهم التخصصية فيه. ويكاد يكون جوناثان براون العالم المسلم الوحيد الغربي الذي اختص بعلم الحديث وأولاه جلّ اهتمامه. فكيف يتناول أخوتنا المسلمون غربيو الثقافة هذا العلم العميق في أبحاثهم. هذا هو صلب هذه الورقة البحثية.

أهمية البحث: يعتقد الباحث أن الأهمية الأبرز لهذا البحث تتجلى في:

- جسر الفجوات بين علماء الشرق والغرب المختصين بالحديث الشريف وعلومه.
- تفهّم كل منهما لنتاج الآخر "البحثي العلمي" وتتضافر الجهود المبذولة.

مشكلة البحث: السؤال المحوري الذي تحاول هذه الورقة البحثية الإجابة عنه هو:

- ما منهج علماء الغرب المسلمين في تناول المسائل الحديثية؟

أهداف البحث: يهدف البحث إلى:

- التعريف بأهم المختصين بالحديث الغربيين في عصرنا الحالي.
- الوقوف على أبرز سمات المنهجية البحثية العلمية لديهم.

محددات البحث: سيقتصر البحث على البروفيسور جوناثان براون في بحثه Even If It's Not True It's True: Using Unreliable Hadiths in Sunni Islam. وذلك لأن براون هو الأشهر على الإطلاق –إن لم يكن الوحيد من علماء الغرب– المسلم المختص بالحديث الشريف. ولن يتطرق الباحث لكل نقاط الاختلاف العلمي بشكل مقارنة بين علماء الشرق والغرب التي

* كلية الشريعة، الجامعة الاردنية، الاردن. تاريخ استلام البحث 2017/8/13، وتاريخ قبوله 2018/3/26.

© 2019 عمادة البحث العلمي / الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

قد تشكل مادة بحثية كبيرة تتسع لها دراسة مستقلة، إلا أن الباحث قد ينوه أحيانا.

وقد جاء البحث على النحو التالي:

التمهيد: من هو جوناثان براون؟

المبحث الأول: السمات العامة لمنهج براون.

المبحث الثاني: مسائل منهجية تفصيلية عند براون.

المبحث الثالث: عجمة اللسان وأثرها في البحث.

التمهيد[1]: من هو جوناثان براون؟!

هو الأمريكي جوناثان آ. س. براون، ولد في 9 آب 1977م.

- حصل على الدكتوراه من جامعة شيكاغو بولاية إلينوي في تخصص "الفكر الإسلامي" بقسم لغات الشرق الأوسط وحضاراته.
- حصل على البكالوريوس في تاريخ التقارب الإسلامي – المسيحي من جامعة جورج تاون بالعاصمة الأمريكية واشنطن.
- كما درس اللغة العربية لعام كامل من الفترة حزيران 2000 إلى حزيران 2001 بالقاهرة في مركز دراسة اللغة العربية لغير الناطقين بالعربية (CASA)
- ويعمل حالياً أستاذ للدراسات الإسلامية بمركز الأمير الوليد بن طلال للتفاهم المسيحي–الإسلامي بجامعة جورج تاون بالولايات المتحدة الأمريكية.

أهم المناصب التي شغلها: شغل جوناثان براون مناصب عدة أهمها:

- رئيس مركز الأمير الوليد بن طلال للتفاهم المسيحي–الإسلامي بجامعة جورج تاون بالولايات المتحدة الأمريكية.
- رئيس تحرير "موسوعة القانون الإسلامي" التابعة لجامعة أكسفورد.
- محرر استشاري بـ"مرجعية الدراسات الإسلامية على شبكة المعلومات" التابعة لجامعة أكسفورد.
- محرر استشاري "لموسوعة العالم الإسلامي " التابعة لجامعة أكسفورد.

اللغات: يتقن من اللغات الانجليزية والعربية والفارسية والتركية (بمستوى جيد) واللاتينية والفرنسية والألمانية

مؤلفاته وإسهاماته في علوم الحديث الشريف: له عدة مؤلفات :

- من أهمها وأحدثها كتاب" النقل الخاطئ عن محمد: تحديات و خيارات تفسير التراث النبوي" والذي صدر عن دار نشر Oneworld عام 2014.
- وصدر له عن جامعة أكسفورد كتاب "محمد: مقدمة قصيرة جداً"عام 2011.
- كما له كتاب"الحديث : تراث محمد خلال العصور الوسطى و الحديثة" والذي صدر أيضاً عن جامعة أكسفورد عام 2009.
- وأخيراً أول كتبه الصادر عن ليدن–بريل عام 2007 "التشريع بالحديث النبوي وفقًا للبخاري و مسلم".

كما نُشر له عدة أوراق بحثية مهمة مثل[2]:

- "تشريع ابن ماجة: الموثوقية مقابل الاستفادة من السنة المشرفة"، مجلة "كتابة التاريخ والتشريع في العالم الإسلامي في القرون الأولى للإسلام"، 2011.
- وبحث"هل الشيطان يكمن في التفاصيل؟ النزاع بين شمولية التشريع و بساطته"، مجلة "القيم الدينية"، 2011.
- وكذلك بحث"هل قالها الرسول أم لم يقُلْها؟ الحقيقة الحرفية والتاريخية والأكيدة بالأحاديث النبوية الشريفة"، "مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية"، 2009.
- كما نشر بمجلة العالم الإسلامي عام 2006 ورقته البحثية الماتعة"الأيام الأخيرة من حياة الإمام الغزالي و الشعبة الثلاثية بالعالم الصوفي: رسالة أبو حامد الغزالي إلى الوزير السلجوقي و التعليق عليها".
- وبحث "انتقادات التشريع بالنصوص الأولية للحديث الشريف: تعديلات الدارقطني لصحيحي البخاري ومسلم"، مجلة جامعة أكسفورد للدراسات الإسلامية، 2004.

فلسفته وآراؤه السياسية والاجتماعية:

في حديث أجراه موقع"آخر الرسل"– The Last Prophet – تكلم البروفيسور براون[3] عن نشأته الأولى حيث ذكر تربيته وفقاً لتعاليم الكنيسة الأنجليكانية، إلا أن عائلته لم تكن متدينة ولذلك فلم ينشأ ملتزماً بأي من التعاليم المسيحية.

يقول:" لقد آمنت دوماً بوجود الرب، فحينما كنت بالجامعة وفي أثناء سنتي الأولى بجامعة جورج تاون، درست مادة عن الإسلام وكان المحُاضر وقتها سيدة، ولقد أثر بي ما كانت تشرحه لنا بشكل كبير، وأدركت أن ما تقوم بتدريسه تلك المُحاضرة ما هو إلا أمورٌ قد آمنت بها طوال حياتي، عن الله، وفلسفة سببية الكون، وفكرة أن العقل والدين من المفترض أن يكونا متوافقين. فالدين من شأنه أن يعزز حياتك لا أن يجعلها أكثر شقاءً". وأضاف "وبعد ذلك الفصل الدراسي قضيت وقتاً طويلا في صيف 1997 بقراءة الكتب عن الإسلام كما جُبْتُ أرجاء مختلفة من أوروبا والمغرب، وعندما عدت للسنة الدراسية التالية أعلنت إسلامي."

وعن أكثر شيء تأثر به عن الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال دراسته للدين الإسلامي والأحاديث النبوية الشريفة على وجه الخصوص، أجاب بروفيسور براون"على الأرجح لأنه كان رجلا فاضلا في كل مواقفه، وهو أمر ملهم للغاية"، وأضاف" فمفهوم القدوة الدينية التي لدينا بأمريكا كان دوماً على منوال محدد، على سبيل المثال نجد بالنصوص المسيحية "يسوع" دائماً ما يكون لطيفاً ومتسامحاً، لكن هناك بعض المواقف التي لا تتطلب منك أن تكون متسامحاً طوال الوقت، فبعض المواقف تتطلب منك أن تكون ليناً وأخرى تتطلب منك أن تكون حازماً، أو صبوراً، أو التصرف على وجه السرعة، فلا توجد وتيرة واحدة تخبرك كيف تتعامل مع كل المواقف التي تقابلها في حياتك، ولقد كان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ملهماً في كل مواقفه المختلفة وهنا تكمن أهميته كقدوة لأصحابه والتابعين".

وعن رأيه عن السبب الذي يجعل من شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم مستهدفة للنقد اللاذع من قبل بعض الناس بأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، أجاب بروفيسور بروان" أولا وقبل كل شيء بسبب الجهل. فمعظم الناس لا يعرفون شيئاً عن الإسلام أو النبي، ويسمعون أن المسلمين إرهابيون وأن الإسلام دين عنيف، بالتالي فشخصية النبي لديهم تمثل مصدراً أو رمزاً لذلك العنف، وهذا هو السبب الرئيس. وهناك أيضاً الكثير من الأسباب السياسية، فالصراع الدائر بين المسلمين والدول الغربية بسبب أن الأخيرة اعتادت أن تغزو وتحتل بلاد المسلمين ، مما خلف الكثير من التعقيدات النفسية والأيدولوجية بين الطرفين. فالغرب يصف المسلمين بالعنف لأنهم يقاومون هجمات غزوات الغرب على بلادهم! مما خلف تاريخاً طويلا من الصراع بين الدول الغربية والدول الإسلامية، ولكن هذا النوع من تصوير النبي اليوم، والذي يبرز تلك الكراهية والحقد بشكل جلي، لا يمكن تفسيرها إلا على أنها نتاج للصراع السياسي حيث تقوم بعض الأطراف بتزكيته بشكل مدروس".

وما يزال براون حتى وقتنا هذا من أبرز الشخصيات العلمية الإسلامية الغربية التي تدعى للمؤتمرات عالميا ومحليا في الولايات المتحدة الأمريكية، ومعظم الجامعات العالمية.

المبحث الأول : السمات العامة لمنهج براون

لا يخفى في العالم الغربي عموما وفي الولايات المتحدة الأمريكية خاصة الأثر الكبير لبراون في علم الحديث، حتى إنه لا يكاد يذكر علم الحديث الشريف عند علماء الغرب المنصفين إلا ويقفز اسمه مباشرة للأذهان، خاصة إذا كنت تتكلم عن عالم غربي مسلم معاصر متخصص بالحديث الشريف، فهم ندرة بين المسلمين من علماء الغرب وغير المسلمين. لقد اشتغل بالحديث علماء غرب غير مسلمين وألفوا وكتبوا، لكن هناك فرقا شاسعا بين ما قدمه براون وبين ما قدموه؛ ففي حين يتقدم براون بتفنيد شبهات طال أمدها في الثقافة الغربية، ويعمل على بناء أسس علمية موضوعية لقضايا الحديث المقدمة حتى أنه يعد الفارس الأبرز في ساحة المدافعين عن الحديث عموما وعن الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة. يتناول غير المسلمين منهم مسائل يغلب عليها الطابع التشكيكي إما في الرسالة الإسلامية ككل أو في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، أو في المادة الحديثية التي تتواجد بين أيدي المسلمين. فتناول جوينبل الإسناد مثلا، وتناول غيره ومسائل البعد السياسي للحديث ونماذج من الأحاديث التي يطعنون بها مثل بورتون[4]، وبعضهم انطلق للعمل على مسائل المصنفات مثل مصنف عبد الرزاق لهارولد موتسكي[5]. يعدّ براون هو الوحيد تقريبا الذي دخل على فضاء المسائل الحديثية المصطلحية[6] وغير المصطلحية، وقدم أنموذجا لا يكاد يراه علماء الغرب من متخصص يمتلك ثقافتهم ولغتهم ويعلم تماما فكرهم ومنطلقهم. فلا نكاد نجد على سبيل المثال من يختم بحثه العلمي بنتيجة عن أهل السنة يقول فيها:" إن تصنيفهم لقبول النص المستخدم كدليل بناء على (الوثاقة والمصداقية) وتقسيم هذه النصوص لمراتب للخطاب الديني (يقصد الصحيح والحسن والضعيف) فريد على حد علمي"[7].

يبدو جليا قلة العلماء بشكل عام الذين تناولوا علم الحديث في الغرب، ولعل السبب في ذلك: صعوبة المفاهيم والمصطلحات

العربية المستخدمة في علم الحديث، الاختلاف والتنوع الكبير في صور وأنواع الأحاديث تبعا لما يتوافر فيها من أوصاف حيث بلغت أنواع الحديث الضعيف عند ابن حبان 49 نوعا[8]، وعندما ألف ابن الصلاح مقدمته وهي موسومة بـ "معرفة أنواع علوم الحديث" جعل أنواع علوم الحديث 65 نوعا[9]، وجمع الْمَنَاوِيُّ كُرَّاسَةً. وَنَوَّعَ مَا فَقَدَ الِاتِّصَالَ إِلَى مَا سَقَطَ مِنْهُ الصَّحَابِيُّ، أَوْ وَاحِدٌ غَيْرُهُ، أَوِ اثْنَانِ، وَمَا فَقَدَ الْعَدَالَةَ إِلَى مَا فِي سَنَدِهِ ضَعْفٌ أَوْ مَجْهُولٌ، وَقَسَّمَهَا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ إِلَى مِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَعِشْرِينَ قِسْمًا بِاعْتِبَارِ الْعَقْلِ، وَإِلَى وَاحِدٍ وَثَمَانِينَ بِاعْتِبَارِ إِمْكَانِ الْوُجُودِ، وَإِنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ وُقُوعُهَا[10]، وقد قال ابن كثير عن هذا التعداد أنه:" قابل للتنويع إلى ما لا يحصى، إذ لا تنحصر أحوال الرواة وصفاتهم، وأحوال متون الحديث وصفاتها[11]". بالإضافة إلى أنه يصعب جدا على غير المتقنين للعربية–حتى لو كانوا يجيدون التحدث بها كما هو حال غالب علماء الغرب المختصين بالدراسات الإسلامية– أن يفهموا دقة العبارات النقدية فكيف بعلل الحديث وفنونه!.

يمتاز براون أيضا أنه قدّم طرحا جديدا للحديث عند علماء الغرب، حيث كانت معظم دراسات الغرب–إن لم تكن كلها– تتمحور حول تأييد ما ذهب إليه جولدزيهر وشاخت باعتبارهما الفاتحين الأوائل لهذا العلم في العالم الغربي. أو بأفضل الأحوال يقوم علماء الغرب بمخالفة جولدزيهر وشاخت فيما ذهبوا إليه من الانتقاص الشديد والطعن بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم وبكافة المرويات. إلا أنهم بعد ذلك لا يتجاوزون أن يقولوا هي روايات تاريخية لا تحمل المصداقية التي يعتقدها علماء المشرق المسلمين. جاء براون فقَلَبَ الأساس الغربي للتعاطي مع الحديث النبوي كله رأسا على عقب وطرح كتابه المميز Misquoting" "Muhammad The Challenge and Choices of Interpreting the Prophet's Legacy " النقل الخاطئ عن محمد: تحديات و خيارات تفسير التراث النبوي" الذي بيّن فيه عمق واتساع إنجاز العلماء المسلمين الأوائل وفي وقت مبكر في تقييم صحة الأقوال والنصوص مقارنة بغير المسلمين، فهو أول غربي قدّم –على حد علمي– وبقوة التخصصية أن نهج العلماء المسلمين الأوائل يعد أنموذجا متميزا في تقييم صحة الروايات. ولا يخفى الأثر الكبير لما طرحه براون ويكفي أن ننظر إلى المراجعات العلمية التي كتبت تعقيبا على كتبه وبحوثه.

وتتمة لمسيرته العلمية المتوازنة تناول براون مسألة العمل بالحديث الضعيف عند علماء السنة (وهي موضوع الدراسة هنا). ففي حين يؤكد علماء الغرب أن الأحاديث كلها لا تثبت إلا القليل منها كروايات تاريخية يدخل براون إلى عمق المسائل الحديثية ليبرهن أن عددا ليس يسيرا من علماء المسلمين السنة رفضوا الحديث الضعيف والعمل به والاعتماد عليه في الأحكام الشرعية فكانت هذه الدراسة من براون لتغيير مسار التعاطي مع الحديث النبوي.

لكن لا بد أن نشير أن هناك اختلافا في تناول هذه المسألة عما اعتدناه هنا في بلاد المشرق الاسلامي. فكانت هذه الورقة البحثية للوقوف على سمات براون المنهجية العامة والخاصة في طرح مسألة العمل بالحديث الضعيف[12]لنكون على بينة من منهج علماء الغرب المسلمين وليكمل بعضنا جهد الآخر.

أما أبرز السمات العامة لمنهجه فهي:

أولا :التتبع التاريخي في الدراسة:

الدارس للبحث يلحظ بوضوح أن براون تناول المسألة من خلال تتبعها تاريخيا بشكل موسع. ويظهر ذلك بوضوح تصريحا قوليا في مقدمة البحث التي يقول فيها: "هذا البحث يتعقب المدارس الفكرية والمواقف المختلفة في استخدامها للحديث الضعيف أو الموضوع عند علماء السنة من القرن 3هـ / 9م حتى يومنا هذا."وقد كرر ذكر ذلك في أكثر من موضع في دراسته[13].

كما يظهر ذلك فعلا عمليا فهو يتناول المسألة في البحث كله بناء على السياق التاريخي؛ فنجده يبدأ من أحمد بن حنبل وأبي داود وعبد الرحمن بن مهدي مرورا بكل من الحاكم النيسابوري والبيهقي، ثم يعرج على الخطيب البغدادي وابن عبد البر وابن الصلاح، فالنووي وغيره ثم إلى ابن حزم الأندلسي، ثم ابن الجوزي فابن تيمية، ثم ابن حجر، ثم علماء القرن التاسع عشر والعشرين ويختم بالمعاصرين.

ثم عندما يريد ذكر من وافق أحدهم نجده يرتبهم غالبا زمنيا فيقول:" وجد موقف ابن الصلاح والنووي من أهل السنة صدى له عند علماء الشافعية المتأخرين الكبار: منهم في بغداد عبد العظيم المنذري (ت656) في كتابه المشهور الترغيب والترهيب، والمؤلف الدمشقي شمس الدين الذهبي (ت 748)، ومن القاهرة عالم الحديث زين الدين العراقي(ت806)، والدمشقي ابن ناصر الدين(ت842)، والجدلي القاهري البقاعي (ت885) في دفاعه عن المسلمين الذين يستخدمون مواد من الانجيل، والفقيه المكي الكبير ابن حجر الهيتمي (ت974)، ونظيره في الفقه الشافعي جلال الدين المحلي (ت864). المدافع الأكبر عن هذا التوجه جلال الدين السيوطي (ت911) الذي كرر موقف النووي أنه يمكن العمل بالحديث الضعيف حتى في التشريع إذا كان بوعي وحذر[14]."

وتثبيتا لهذه السمة في بحثه لا يكاد يذكر عالم في البحث إلا ويقرن به تاريخ وفاته بالتاريخين الهجري والميلادي، ويشير في كثير من المواضع إلى تزامنهم أو الإفادة من بعضهم.

كما أن استخدامه القرون الزمنية في تطور العمل بالحديث الضعيف؛ فهو لا يكتفي بذكر ما سبق لكنه يذكر القارئ باستمرار عند انتهاء حقبة زمنية طويلة وغالبا قرن أو قرنين. فيقول مثلا:" نقاد علماء الحديث والفقهاء في القرون 9/3 والـ 10/4 دعموا علانية تخفيف متطلبات الوثاقة لموضوعات مثل الأدب والرقائق، أو الترغيب والترهيب، والوعظ. ومن الأنواع التي رخصوا فيها كثيرا فضائل الأعمال، أو الثواب والعقاب في الآخرة"[15].

ولا أبالغ إذا قلت أن السمة الأبرز والأوضح لمنهجه العام هو التناول التاريخي لمسألة العمل بالحديث الضعيف عند علماء السنة. ولعل ذلك مجاراة للمنهج الغربي عموما في تناوله لمسائل الدراسات الإسلامية فهو في أحسن الأحوال يعدّها دراسة تاريخية.

ثانيا: الاعتناء بذكر الانتماء المذهبي(الفقهي أو العقدي) للعلماء في الدراسة

لا يكاد براون يذكر شخصية علمية يستشهد بها في بحثه إلا وينوه بمذهبه الفقهي أو/ وأحيانا العقدي. فيقول:" في نفس توقيت الخطيب، يكتب في لشبونة عالم الحديث المالكي الكبير ابن عبد البر "، وفي موضع آخر يقول:" " أحد مساعدي الحاكم في إيران الشرقية العالم الشافعي الكبير أبو بكر البيهقي "

وعندما أراد أن يسرد المتأثرين برأي معين قال:" وجد موقف ابن الصلاح والنووي من أهل السنة له صدى عند علماء الشافعية المتأخرين الكبار" وما ذكرته أعلاه في ترتيبهم الزمني يؤكد بقوة على سمته المنهجية في ذكر انتماءاتهم المذهبية والجغرافية حيث يقول:" وجد موقف ابن الصلاح والنووي من أهل السنة له صدى عند علماء الشافعية المتأخرين الكبار: منهم في بغداد عبد العظيم المنذري (ت656) في كتابه المشهور الترغيب والترهيب، والمؤلف الدمشقي شمس الدين الذهبي (ت 748)، ومن القاهرة عالم الحديث زين الدين العراقي(ت806)، والدمشقي ابن ناصر الدين(ت842)، والجدلي القاهري البقاعي (ت885) في دفاعه عن المسلمين الذين يستخدمون مواد من الانجيل، والفقيه المكي الكبير ابن حجر الهيثمي (ت974)، ونظيره في الفقه الشافعي جلال الدين المحلي (ت864). المدافع الأكبر عن هذا التوجه جلال الدين السيوطي (ت911) الذي كرر موقف النووي أنه يمكن العمل بالحديث الضعيف حتى في التشريع إذا كان بوعي وحذر".

ويقول في موطن آخر:" يتبنى علماء الحنفية الكبارمن روايات السنة المتأخرة موقف أهل السنة من المعايير، مضيفين شرطا أن الفعل إذا كان معتمدا على حديث ضعيف فيمكن أن يكون مستحبا وليس واجبا. الفقيه الحنفي المصري المشهور كمال الدين ابن الهمام ت861 أكد استحباب الوضوء من حمل الجنازة واعتمد على حديث يعلم هو أن العلماء ضعفوه"[16].

أما عن المذهب العقدي فقد تناول في بحثه المذهب السلفي وعلماءه في عناوين رئيسة في البحث إذ من عناوين بحثه الرئيسة: "السلفيون الحداثيون والقضاء على البدع"، " السلفية التقليدية والرفض الكامل للأحاديث الضعيفة"، وأفرد عنوانين تامين لـ"مدرسة ابن الجوزي" و"مدرسة ابن تيمية". وفي ثنايا بحثه يقول:" العالم الهندي الحنفي ظفر أحمد التهانوي ت1974 أيضا أخذ الموقف السني التساهلي في كتابه "قواعد التحديث". يشكل موقفه جزءا من الرد على السلفية الهندية، التي اتهمت المدرسة الحنفية الفقهية أنها تنكر الاحترام الذي يستحقه الحديث النبوي"[17].

ويقول في موطن آخر:"عدد من العلماء البارزين من اليمن من الزيدية، ومن الزيدية الذين تحولوا إلى السنة أيضا أيدوا موقف أهل السنة، ابن الوزير الصنعاني ت840 تبع ابن الصلاح في طريقته في علوم الحديث[18]". ويقول: "أخ آخر من عائلة الغماري المستقلة يستحق الذكر تبعا لحالته الفريد من نوعها. أحمد بن صديق الغماري ت1960، نسيب عبد الله الأكبر، الذي انحاز بوضوح مع التقليد السني المتأخر في دفاعه المستميت للصوفية وهيامه وعشقه لبيت النبي[19]" ومثل هذا كثير في ثنايا البحث.

ثالثا: الاهتمام بجغرافية العلماء موطنا وإقامة

اهتم براون بشكل ملحوظ ببيان أصل كل شخصية ونسبتها إلى موطنها الجغرافي كما ظهر في عدد من النقول السابقة وكما نراه يقول:"العالم الخراساني الحاكم النيسابوري "، وفي موضع آخر يقول:"في نفس توقيت الخطيب، يكتب في لشبونة عالم الحديث المالكي الكبير ابن عبد البر"، ومن جميل تعبيره ما قاله عن البيهقي حيث عرّف به بقوله:" أحد مساعدي الحاكم في إيران الشرقية العالم الشافعي الكبير أبو بكر البيهقي" فهو ينوه بموطنه على ما يُطلق عليه في العصر الحالي.

وعندما اراد تتبع من أخذ برأي أهل السنة في المسألة نجده يطوف في البلدان لينقل من كل بلد من وافقهم ومشى على مذهبهم يقول:" يتبنى علماء الحنفية الكبارمن روايات السنة المتأخرة موقف أهل السنة من المعايير، مضيفين شرطا أن الفعل إذا كان معتمدا على حديث ضعيف فيمكن أن يكون مستحبا وليس واجبا. الفقيه الحنفي المصري المشهور كمال الدين ابن الهمام ... عالم

الفقه الحنفي المكي الملا علي القاري ت1014 يقول..ومثل ابن الهمام قال إن هذا يستلزم السماح باستحباب الأفعال بناء على أحاديث ضعيفة.

العالم الحنفي الذي تولى نقل دراسة الحديث بقوة من الحجاز إلى الهند الهندي عبد الحق الدهلوي ت1052 أيد موقف النووي الأخير من السنة. وكذلك فعل مؤلف المعجم الهندي الذي هاجر إلى القاهرة المرتضى الزبيدي ت1791م. ومشى على المنوال نفسه المفكر الفقيه –غير المشهور في ذاته– المفكر العثماني كاتب تشيلبي ت1067هـ ..ويتابع:"عدد من العلماء البارزين من اليمن المميزة من الزيدية ومن الزيدية الذين تحولوا إلى السنة أيضا أيدوا موقف أهل السنة. ابن الوزير الصنعاني ت840 تبع ابن الصلاح .. العالم الزيدي إمام زمانه صارم الدين الوزيري ت914هـ يقول .. عالم وتاجر المحيط الهندي محمد بن عقيل كان مزيجا طائفيا غريبا ". فنراه تتبع المسألة بين علماء الشرق–مصر ومكة– ونتقل إلى الهند فتركيا ثم اليمن فمصر وغيرها من مواطن العلماء وكأن أراد إجراء مسحا زمنيا وجغرافيا للمسألة.

رابعا: كثافة المراجع وتنوعها

لم يأل بروفيسور براون جهدا في تغذية بحثه بكم كبير من المراجع، وقد طاف بين مجموعة من المراجع المتقدمة: من الأمثلة عليها؛ السيرة النبوية لابن هشام، كتب أحمد بن حنبل، الكتب الستة وغيرها.

والمتأخرة: مثل كتب الخطيب البغدادي، وكتب البيهقي، وكامل ابن عدي، كتب الحاكم، كتب النووي، وكتب ابن حجر وغيرهم.

والمعاصرة: مثل كتاب آراء ابن القطان الفاسي في علوم مصطلح الحديث لمصطفى أبو سفيان، وكتب: التهانوي، أحمد بن صديق الغماري، عبد الفتاح أبو غدة، محمد عبده، رشيد رضا، الغزالي، القرضاوي، والألباني.

وقد تنوعت ما بين: كتب الحديث التخصصية: مثل الصحيحين والسنن وكتب الشروح، وكتب الرجال: مثل الجرح والتعديل لابن أبي حاتم، وكامل ابن عدي وكتب الفقه.

كما شمل هذا التنوع المراجع باللغتين العربية والانجليزية والتركية ؛ فقد استند في توثيقه على أمات الكتب الشرعية باللغة العربية إلا أنه أيضا رجع إلى المراجع الانجليزية في مواطن معينة: كمعنى الحديث من الموسوعة الإنجليزية، واستدل بأبحاثه الأخرى مثل "Did the Prophet Say it or Not"، وعلى كتاب تشلبي التركي المترجم للإنجليزية.

خامسا: التعريف المقتضب بالشخصيات

عدد العلماء الذين ذكرهم براون في بحثه تجاوز السبعين عالما، وطاف بين العلماء المتقدمين والمتأخرين حتى بلغ المعاصرين. وعند ذكره للعالم في أول موطن يعرّف براون به بطريقته التي تمزج بين ذكر موطنه الجغرافي ومذهبه غالبا، وأحيانا بذيوع صيته كما عرف بابن الجوزي عندما قال عنه:" العالم الحنبلي البارز واعظ بغداد في زمانه ابن الجوزي ت597 الذي كان منهمكا في الحياة الدينية ومع الأعداد الضخمة الذين يحضرون دروسه[20]"، أو باشتهار كتابه كما عرف بالنووي حيث قال:" يؤكد النووي في كتابه الذي انتشر بصورة واسعة وطبع مرارا–الأذكار– أنه يمكن العمل بالأحاديث الضعيفة طالما أنها ليست كذبا واضحا وموضوعها ليس الأحكام الشرعية، مثل فضائل الأعمال[21]"، أو بتلمذته أو مشيخته لآخر كما في " تلميذ ابن حجر الكبير السخاوي ت902 يوضح أن شيخه سمح باستخدام الأحاديث الضعيفة فقط في الفضائل وفي شروط ثلاثة[22] "، أو يعرّف به من خلال موقف معين قوي له، كما ذكر عندما عرّف بابن الصلاح. لكن السمة الغالبة في كل هذا التعريف هو الإيجاز وعدم الإطناب.

فنجده يقول عندما أراد ذكر ابن الصلاح:" هذا الموقف أخذ طابعه الأكثر قوة من عالم الحديث الدمشقي ابن الصلاح –الذي أضاف موانع شديدة من استخدام الحديث الضعيف في العقيدة–"[23].

وعند التعريف بالنووي قال:"وأيضا ومن العلامة صاحب الأثر الأكبر لمن جاء بعده محي الدين النووي"[24].

وكذا الحال للإمام البيهقي:" أحد مساعدي الحاكم في إيران الشرقية العالم الشافعي الكبير أبو بكر البيهقي[25]."

سادسا: عناوين "ملفتة" لمسائل بحثه

يلفت نظر القارئ المعتاد على أبحاث الدراسات الإسلامية باللغة العربية في المشرق نظم براون لعناوين بحثه؛ بدءا من عنوان البحث الذي يمكن ترجمته بـ "مع أنه لا يصح إلا أنه حقيقة: العمل بالأحاديث الضعيفة في الاسلام السني" فهو يعالج مسألة العمل بالحديث الضعيف عند أهل السنة إلا أنه قرر النتيجة في عنوان الدراسة مقدما.

وعند متابعة عناوين البحث الرئيسة يتضح مراد الباحث حيث جاءت عناوين بحثه:

الشواهد الحديثية والروايات غير النبوية: أشار فيه أن بحثه لا يتناول الأحاديث التي قويت من طرق أخرى أو تلك التي لا

إسناد لها.

شبه الاجماع الأولي: تكلم فيه عن أن في القرن 3هـ/9م ما يشبه الاجماع بين علماء الحديث أن الأحاديث الضعيفة وليس لها طرق تؤيدها يمكن العمل بها طالما أنها ليست في الأحكام.

مذهب أهل السنة المؤسسي: أراد به التصنيف والتقعيد المنهجي للعمل بالحديث الضعيف.

التوافق في مذهب أهل السنة المختلف: فبعد أن ذكر أن بعضهم عمل به وبعضهم لم يعمل، بين أنهم جميعا اتفقوا على أنه لا يجوز رواية المكذوب أو الموضوع من الروايات، إلا أنه قال لا يوجد حد فاصل بين الضعيف والموضوع.

عنوان: "صوت في البرية" ترجمته بـ (آراء شاذة): ويقصد بهم من رفضوا العمل بالضعيف خارج الحلال والحرام، ورفض استخدامها مطلقا لأي غرض ومثّل لهم بالإمام مسلم وابن حزم.

مدرسة ابن الجوزي: المثل والتبعات : أشار فيه أن التبعات المجتمعية للعمل بالحديث الضعيف تتعارض مع المثل الخلقية لحديث "من كذب علي"، وركز على ابن الجوزي وتحذيره من القصاص والوضاعين وذكر من وافق ابن الجوزي على ما ذهب إليه.

مدرسة ابن تيمية: الوحدة النوعية للأحكام الشرعية : ويقصد بهذا العنوان أن ابن تيمية وحّد التوصيف للأحكام الشرعية، فكل الأحكام الشرعية وخاصة الاستحباب يجب أن تؤخذ من أحاديث بذات القوة وكأنه يرد على من قال بجواز أخذ حكم الاستحباب من الأحاديث الضعيفة.

تعديل ابن حجر العسقلاني: وذكر فيه شروط ابن حجر التي استخلصها للعمل بالحديث الضعيف.

الأحاديث الضعيفة في العصور الحديثة وأوائل العصور الحديثة: ذكر فيه أثر تعديل ابن حجر لموقف أهل السنة للعمل بالحديث الضعيف ومن تأثر بها وركز على اللكنوي وجمال الدين القاسمي وعبد الله الغماري.

السلفية الحداثية والقضاء على الخرافات: أشار تحت هذا العنوان إلى علماء السلفية الحداثية مثل محمد عبده ورشيد رضا وانتقل لشلتوت ومحمد أبو زهرة والغزالي ورفضهم القاطع للإسرائيليات والأحاديث المخالفة.

السلفية التقليدية والرفض القاطع للأحاديث الضعيفة: وجال فيه بين علماء الهند واليمن ومصر ولبنان وختم بالألباني وصديق حسن خان وأشار إلى تأثر القرضاوي بذلك.

حليف غريب: محمد زاهد الكوثري: حيث اعتبره الخصم الفكري الأشد للسلفية التقليدية والحداثية في القرن العشرين.

المدافعون عن التراث السني المتأخر: وكأنه يقصد به المدافعون المتأخرون (ومثل لهم بـ الباجوري، ظفر أحمد التهانوي، يوسف النبهاني، عبد الفتاح أبو غدة، حمزة يوسف، وجبريل فؤاد حداد، أحمد بن صديق الغماري) عن موقف أهل السنة المتقدمين (النووي والسيوطي) الذين يرون أن هناك إجماعا على العمل بالأحاديث الضعيفة خارج الأحكام الشرعية.

الخاتمة: يذكر فيها أن ما واجهه المسلمون من نقاش بين أي الطريقين يتصدر لبيان الحق؛ هل نقدم موثوقية النص وصحته بغض النظر عن كم الروايات التي سنفقدها أم نقدم المنفعة أو المصلحة حتى لو كانت من روايات لا تتمتع بالصحة العالية قد واجهته اليهودية والمسيحية لكن قواعد أهل السنة في تمييز الأحاديث فريدة من نوعها. ثم قدم ملخصا لكل المدارس التي ذكرها خلال بحثه وموقفها من العمل بالحديث الضعيف.

فهو في بحثه ينتقل من عنوان لعنوان غير آبه ببيان الاتجاهات الرئيسة للعمل بالحديث الضعيف كما هو الحال في دراساتنا، بل يسعى لرصد تاريخي للمسألة محاولا بيان أن بعض المتقدمين تساهلوا في العمل بالحديث الضعيف إلا أن هذا الموقف غير مجمع عليه وكثير من علماء السنة رفضوه، ليصل في نهاية المطاف إلى أن الأحق الثبات على عدم العمل به. ومع أنه لم يصرح بهذه النتيجة بالوضوح الذي ذكرته لكن يسهل على القارئ استنتاج ذلك من خلال عباراته وتعليقاته على مواقف العلماء واتجاهاتهم.

المبحث الثاني: مسائل منهجية تفصيلية عند براون

تناولت في المبحث الأول أهم السمات المنهجية العامة عند براون في بحثه لمسألة العمل بالحديث الضعيف عند أهل السنة. إلا أن الدارس لكتابات علماء الغرب عموما والمشتغلين بالدراسات الإسلامية خاصة يجد بعض الخصائص المنهجية الخاصة بهم. في هذا المبحث يقف الباحث على أهم المسائل المنهجية التفصيلية عند براون.

المصطلحات المستخدمة:

يعتمد براون مصطلحات لها مدلولات في دراسات العالم الغربي وشبه متفق عليها في تناولهم لمسائل الدراسات الإسلامية، أبرز هذه المصطلحات: الحداثة وهي لا تعكس الصورة السلبية لها في دراساتنا، بل هي وسيلة للتعبير عن اختلاف النهج وتطور

الفكر ولعله استخدمها لانتشارها في العالم الغربي. ويستخدم مصطلح علماء الصحوة وغيره فيقول مثلا:

"في العصور– ما قبل الحداثة –كان قبول الأحاديث غير الصحيحة هو الاتجاه المسيطر بين علماء السنة باستثناء مجموعة من علماء الحنابلة في دمشق وبغداد. انهم اعتبروا ذلك بدعة وخيانة للمسؤولية العلمية للحفاظ على الشريعة كما جاءت ويفسد قابلية الناس للتخصيص القيمة الأخلاقية المناسبة للعبادات.

أما في أوائل الحداثة وفي عصر الحداثة فالاعتراضات على الاستخدام الانتقائي للأحاديث الضعيفة تكثفت مع ظاهرتين غير مسبوقتين: الأولى : علماء الصحوة في القرن 18م المؤثرين حيث وضعوا مصداقية النص في مقدمة نداءاتهم للرجوع إلى منهج السلف في التصحيح. والثانية:عقلانية الحداثيين وقلقهم إزاء ممارسات رأوها خرافية، جعلت الحداثيين الإسلاميين –مثل رشيد رضا عنده توجس من تأثير هذه الأحاديث الضعيفة على توافق وانسجام الإسلام مع العالم الحديث. كما أن النقد التاريخي الاستشراقي جعل علماء المسلمين واعين للعواقب الخارجية لقبول الأحاديث غير الصحيحة وتأثيرها على نظرتهم الدفاعية. وعلى العكس من ذلك المدافعين الحداثيين عن العلماء السنة القدماء جعلوا سمتها المميزة التخلي عن الأحاديث غير الموثوقة كجزء من مقاومة الحركات الإصلاحية.[26]"

ويستخدم براون مصطلحا يكثر شيوعه في الدراسات الغربية للإسلام وهو "أهل الحديث" وهو مصطلح ينبغي دراسته بحثيا بعمق في أبحاثهم وكتبهم للوقوف على مقصدهم منه بدقة. لأن ما قرأته من دراساتهم يشير أنهم يقصدون به الحركة السلفية الممتدة عبر قرون لكن كما قلت ينبغي معرفة مقصدهم بعمق أكبر. استخدمه براون حيث يقول: "في القرون 8/2 و الـ9/3 الفقهاء المسلمون من أهل الحديث أخذوا الأحكام الشرعية من الأحاديث التي لم ترق لمعايير القبول لديهم لصحة إسنادها"[27].

"علماء أهل الحديث مثل ابن حنبل وأبي داود ت: 275 لم يعدّوا هذه الممارسة خيانة لالتزامهم بالبقاء مع السنة الصحيحة للنبي. بل قبلوا أحاديث بأسانيد ليست قوية إما لأن هذه الأحاديث لها طرق أخرى تدعمها وتقويها وقبلها فقهاء كبار أو لأن لا يوجد في الباب غيرها. هذه ليست الأحاديث موضوع هذا البحث بما أن فقهاء أهل الحديث يعتقدون أن هذه الأحاديث يمكن الاعتماد عليها كسنة للرسول.[28]"

ومن مصطلحاته في بحثه وصفه لعدد من علماء المسلمين بـ"المستقلين" لأنهم لا ينتمون إلى مذهب فقهي سابق حيث يقول تحت عنوان "آراء بعيدة":"صوت خرج من صحراء الأندلس للمستقل ابن حزم ت456"[29]، وقريب منه قوله:" العالم التقليدي المغربي المستقل عبد الله الغماري ت1993م"[30].

وأحيانا يوجد براون تركيبة اصطلاحية –إن جاز التعبير– فيدمج بين وصفين كل منهما مصطلح بحد ذاته كقوله في أحد عناوينه:" السلفيون الحداثيون والقضاء على البدع[31]" ويعني به العلماء المتأخرين الذين طالبوا بالرجوع إلى الأصول وواكبوا أثر تطور العالم الغربي غالبا على الأمة الإسلامية.

استخدام الإحصاء للتدليل على ما يذهب إليه:

من أجمل ميزات براون المنهجية التفصيلية استعانته بالإحصاء لإثبات الفكرة التي يطرحها، وهو منهج له صدى كبير في دراسات العالم الغربي في الوقت الراهن ولعل ذلك بسبب العقلية المادية المغرقة لديهم فلا يكادون يؤمنون إلا بما أيدته الأرقام والجداول والإحصاء. وقد أجاد براون استخدامه ليثبت أن عدد الأحاديث الضعيفة في الحلال والحرام أقل بكثير عنه في غيرها من الموضوعات إذ يقول: "في الثلث الأول من القرن 9، "جامع الحديث" الذي كان يحكم باستمرار على الأحاديث التي يختارها "الترمذي" ت 279، زودنا بنظرة عن نقاد الحديث وتعاملهم مع الموضوعات المختلفة في أبواب الأحكام؛ في الزكاة "دفع العشر" في كتابه الجامع وصف 17% من الأحاديث بـ"غريب"، وفي الصوم أيضا 17% ، وفي الميراث والفرائض فقط 7%. الأبواب المتعلقة بغير الأحكام الشرعية نجد النسبة تزيد للأحاديث التي يقر الترمذي نفسه أن فيها إشكالية: أحاديث الفتن 35%، مناقب الصحابة 52%، الدعوات 50%، الأدب 27% "[32].

طرح الأسئلة:

من منهجية براون –وهي بالطبع ليست خاصة به ولا بعلماء الغرب– طرح الأسئلة للقارئ، ويريد بيان الهدف من بحثه كقوله: "كيف يتماشى هذا مع حالة التفاني للصحة أو العقيدة؟ وكيف يتماشى هذا النهج الذي اتبعوه مع الحديث المشهور "من روى عني حديثا يرى أنه كذبا فهو أحد الكذابين؟"[33].

وقوله:"هل الدور التربوي لعلماء المسلمين الذي يهدف لتحسين ممارسات العامة العبادية يبرر استخدامهم قصصا مؤثرة حتى لو لم تكن صادقة؟ أم أنهم–العلماء– يجب عليهم اعطاء الأولوية لمصداقية أحاديث الرسول كحقيقة متكاملة بغض النظر عن أية

تقليص ممكن ان يصيب المنفعة الدينية؟ ما هي العواقب الاجتماعية والفكرية للاختيار بين هاتين الأولويتين؟"[34].

أو يريد بيان سبب الاختلاف في العمل بالأحاديث الضعيفة ولم كان هناك نقاش قوي ممتد زمنيا عند أهل السنة كقوله في الموضع الذي يطرح فيه هذه التساؤلات كقوله:"هل "الحق" في النص الشرعي والتاريخ يحدد بمدى انسجامه أو تطابقه مع الحقيقة أم بتقديمه المنافع؟ هل طبقة الوصياء لها الحق لاتخاذ هذا القرار حول طبيعة الحقيقة عن العامة؟ وهل تستطيع هذه الفئة التساهل بالأكاذيب السطحية من أجل تقديم حقائق أكثر عمقا؟ هذا النقاش القديم والعالمي يتطلب مؤتمرا أكبر من مقالة لمناقشتها"[35].

تحديده مناط البحث:

من مزايا براون المنهجية وضعه للمحددات البحثية في دراسته، وبيان نطاق الأحاديث محل الدراسة حيث يقول: "علماء أهل الحديث مثل ابن حنبل وأبو داود ت: 275 لم يعدّوا هذ الممارسة خيانة لالتزامهم بالبقاء مع السنة الصحيحة للنبي. بل قبلوا أحاديث بأسانيد ليست قوية إما لأن هذه الأحاديث لها طرق أخرى تدعمها وتقويها وقبلها فقهاء كبار، أو لأنه لا يوجد في الباب غيرها. هذه ليست الأحاديث موضوع هذا البحث بما أن فقهاء أهل الحديث يعتقدون أن هذه الأحاديث يمكن الاعتماد عليها كسنة للرسول"[36]. فهو يوضح أن مجال الأحاديث الضعيفة التي يبحثها ليست "الحسن لغيره" في عُرف المحدثين كتعريف الذهبي له إذ يقول:" الحَسَنُ ما ارتَقَى عن درجة الضعيف، ولم يَبلُغ درجةَ الصحَّة"[37]. ويقول براون في موضع آخر من بحثه:"كما أننا لا نعالج الروايات المنقولة التي نجدها عادة في كتب الحديث ولكنهم لا يعزونها للنبي"[38].

والباحث هنا ليس بصدد موافقة أو مخالفة المؤلف فيما ذهب إليه، حيث إن هذه المسألة بالذات لا يوافق الباحثُ المؤلفَ في تحديده بل لقد خالف المؤلف نفسه ومحدد بحثه ولعل ذلك بسبب اختلاف اللغة كما سيتضح لنا في المبحث الثالث بعون الله.

التعبير عن رأيه تلميحا دون تصريح:

يلتزم براون بالموضوعية العلمية في بحثه وفي دراساته، إلا أنه مع التزامه بالموضوعية في بحثه فالقارئ بتمعن لكلامه يستطيع أن يقف على ملامح ما يرجحه ويذهب إليه من خلال بعض التلميحات، فمثلا يقول في معرض حديثه عن السلفيين الإصلاحيين: "سعت السلفية الحداثية للعلماء العرب مثل محمد عبده ت1905 ورشيد رضا ت1935 إلى إعادة تشكيل الاسلام العربي الأصلي لما كان عليه في عهد الرسول في مواجهة التجاوزات الغربية"[39].

ويتابع قائلا:"هذه الرؤية للإسلام النقي كانت–في الشكل والمضمون– تجريدا للدين الحديث من عناصر عديدة تعدّ غير منطقية/عقلية وخرافية في عيون الفكر الأوروبي في القرنين 19 و20م. جنبا إلى جنب الإصلاحيين الهنود مثل سيد أحمد خان ت1898، عبده ورضا أكدا مركزية ومحورية القرآن، وإعادة تفسيرها (للمركزية) من خلال أساليب علمية حديثة. لقد سعوا إلى تقييد الجزء الأساسي للحديث الكبيرة والانتقائية، المنتشرة كما كان الحال مع التجسيم وعلم الأكوان الأرسطي ملعونا لنهاية القرن 19 الحديث"[40].

ويقول:" السلفيون الجدد نظروا للصوفية وللممارسات الدينية المنتشرة كقوى قادت ووجّهت المجتمع المسلم بعيدا عن تقوى "السلف" إلى ظلام وجهل وتخلف. على الرغم من عدم الاعتراض على الصوفية كصلاح فردي ووسيلة لتنظيم المجتمع، العلماء مثل رضا رفضوا نسبتها المستشرية للمعجزات للأولياء، والطقوس غير المتعارف عليها، والتفسيرات الصوفية للنصوص. واعتبرت الصوفية البوابة التي من خلالها اخترقت عناصر أجنبية مثل التصوف اليوناني وخرافات الشرق الأدنى الإسلام. السلفيون الحداثيون حددوا الأحاديث المكذوبة على الرسول والإسرائيليات كمادة دعائية أجاز المسلمون اثارها الغريبة. مثل وقت ابن الجوزي السابق، من جهة الوعي لتكلفة هذه الممارسات الزائفة الاجتماعية واضفاء الشرعية المكذوبة الأمر الذي نبّه وأقلق السلفيون الحداثيون"[41].

ومع أنه قد خرج عن حيز بحثه فليس موضوع البحث الأحاديث المكذوبة أو الاسرائيليات، إلا أن ميله واضح لموقف عبده ورضا، واستخدام تعبيرات مثل إعادة التشكيل للإسلام العربي الأصيل، أساليب علمية حديثة، وأنهم رفضوا الإسرائيليات يبين موافقته لما ذهب إليه سيد أحمد خان وعبده ورضا.

ويكمل براون داعما فعل رشيد رضا:" السلفيون الحداثيون سلطوا الضوء على الروايات الحديثية كنقطة ضعف تاريخية في الفكر الإسلامي. على الرغم من انتقاداته الشعواء استهدفت الإسرائيليات، رشيد رضا تولى لواء تطهير الأدب الإسلامي من الأحاديث الضعيفة والمكذوبة .في مجلته المنار، كرس نفسه لمناقشة الأحاديث الضعيفة الموجودة في إحياء علوم الدين للغزالي ت505 وكيف انها استخدمت لتبرير عبادات لا أساس لها. ورفض قبول وجود أحاديث غير موثوقة في أي عمل، ويخاطب سائلا

كيف عالم مثل ابن حنبل كرس نفسه للسنة يضمن كتابه أحاديث مكذوبة ويلقي ظلالا من الشك على صدق تراث الرسول"[42].

شرح كلمات غير معهودة عند علماء الغرب:

يعد براون من أقوى المعاصرين تمكنا من اللغة العربية تقريبا. ولذا نجده أحيانا ينقل العبارة باللغة العربية مترجمة للغته الأم اللغة الإنجليزية ثم يتبعها بيانا لمفردة أو جملة وردت بالنص فنجده يقول:" ذكر ابن عدي ان ابن حنبل روى أن" ثلاثة أنواع من الكتب لا أصول لها"، فيضطر براون لشرح بعض الكلمات المعهودة للسان العربي وغير المعهودة للسان الغربي فنجده مثلا يشرح"معنى أصول: مروية عن النبي"[43]فهو يوضح للقارئ الغربي أن معنى لا أصول لها أي ليست موصولة الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم.

التعليل:

ولا أقصد هنا التعليل الحديثي ذاك العلم الدقيق الخفي العظيم الذي لا يصلح أن يشتغل أحدهم في الحديث ونقده دون أن يكون على دراية به وعلم[44]. بل المقصود محاولاته الشخصية لبيان السبب الذي من أجله أخذ هذا العالم ذلك الموقف. فمثلا عندما أراد أن يذكر أن المدارس الفكرية لأهل السنة من القرن 3هـ إلى يومنا هذا لها مواقف مختلفة في العمل بالحديث الضعيف علل ذلك بقوله:"هذه المواقف المختلفة من تلك الأحاديث تعكس الأولويات المختلفة للعلماء كما تعكس اختلاف مفهوم الصحة عندهم"[45].

وفي موضع آخر عندما ذكر ما عدّه تساهلا في استخدام الأحاديث الضعيفة علل ذلك لمن ذهب إليه بقوله: "ميزة هذا التساهل في نقد هذه النوعية من الأحاديث أنها تسمح باستخدام أحاديث أكثر تنوعا وحيوية وتأثيرا. وكما سبق وناقشنا إنها "الصحة المؤثرة" والمنفعة التربوية لهذه الأحاديث هي التي جعلت استخدامها جذابا. حديث يبين أن الربا 73 نوعا أقلها يعادل ممارسة الرجل الزنا مع أمه تعرض لانتقادات متنوعة ولكن كلا من ابن ماجة ت 273 والحاكم ضمناه مؤلفيهما المحترمين. الفائدة من هذا الحديث لإدانة الربا يمكن تصورها بسهولة. هناك تقدير للمنفعة التربوية واضح في تعليقه على الوعاظ المشهورين في العموم"[46].

المبحث الثالث: عجمة اللسان وأثرها في البحث

يعتقد الباحث أن مع الجهد المميز لبراون إلا أن كون اللغة العربية ليست لغته الأم أدى إلى بعض الملحوظات المنهجية مثل:

اولا: عدم ضبط "الضعيف" المقصود في البحث

أشرت سابقا أن براون له قصب السبق في تناول مسائل حديثية تخصصية، إلا أن ذلك لا يمنع من ذكر بعض الملحوظات التي يتوقع الباحث أن تتلافى بمزيد من الدربة على التعاطي مع الحديث الشريف وعلومه. منها على سبيل المثال عدم ضبطه لحد[47] الضعيف المقصود في البحث، الأمر الذي جعل كثير من التساؤلات العلمية القوية والجادة لها مكانتها ووجودها أهمها في رأي الباحث عدم تحديد المراد بالضعيف الذي هو عمدة بحثه كله. ولتوضيح الصورة أنقل بعضا منها:

يقول براون: "في الواقع إذا فتحنا كتابا مثل الفتن لنعيم بن حماد (ت224) سنجد أن معظم روايات الملاحم منسوبة للصحابة عبد الله بن سلام، وعبد الله بن عمرو بن العاص، أو أوائل اليهود المعروفين الذين أسلموا مثل كعب الأحبار (ت 32). وبالمثل فإن معظم روايات التفسير تحتوي أقوال العلماء الأوائل مثل ابن عباس (ت68) ومجاهد (ت104)"[48]. قلت:هذه أصلا ليست أحاديث ضعيفة بل موقوفات ومقطوعات ولا ينبغي ذكرها كنهج عند علماء السنة في العمل والاستشهاد بالحديث الضعيف.

ثانيا: الخلط بين الضعيف والموضوع

قريب من السابق خلطه بين الضعيف والموضوع، فقد أشرت سابقا أن العبارات النقدية ومراتب الرواة ليست أمرا يستطيعه المرء بمجرد القراءة، فهي تحتاج إلى خبرة عملية ودقة لغوية ومهارة نقدية. ولا نجانب الصواب إذا قلنا إن الناطق بالعربية غير المختص بالحديث لن يكون قادرا على الالمام بعلوم الحديث ونقده ومسائله، فكيف إذا كانت اللغة الأم غير عربية؟! هذا الأمر سبب نوعا من التشويش في تعاطي براون مع الحديث الضعيف فنراه يتحدث عن الضعيف وفجأة يستشهد بالموضوع أو العكس. ومثاله قوله:" هذا النهي الواضح الصريح الذي لا لبس فيه في استخدام الأحاديث الموضوعة–مع ذلك–كانت نتائجه العملية قليلة. فمكانة الأحاديث الموضوعة كانت آخر مرتبة بعد الأحاديث الضعيفة، ولا يوجد تمايز واضح بين بينها وبين الضعيفة". كأنه يشير إلى أنه مع أن أهل السنة قالوا إن الموضوع لا يعمل به، إلا أنهم في واقعهم العملي التطبيقي غالبا لم يلتزموا به لعدم وجود تمايز لديهم بين الضعيف والموضوع! وقد أبعد براون الشقة هنا ففرقٌ شاسعٌ عند أهل السنة بين هذا وذاك. والفروق تكاد تنطق، لو قال

لا يوجد تمايز بين أنواع الضعيف في بعض الحالات لربما قلنا: لعله. لكن بين الضعيف والموضوع فكلامه بعيد جدا عن الواقع الحديثي ولعله استند إلى أحاديث يذكرها ابن الجوزي في موضوعاته حكم عليها آخرون بالضعف لا بالوضع. وهذا لصالح أهل السنة لاعتبار أن ابن الجوزي أدخل في الموضوعات أحاديث ضعيفة لا العكس فلم يدخل في الضعيف أحاديث موضوعة. لكن كما قلت الأمر قد يلتبس بسبب اللغة.

ويقول في بدء دراسته:"دراسة أهل السنة للحديث نشأت من اعتراف واسع أن هناك أحاديث لا عدد لها نسبت زورا للرسول[49]."

أقول: يرتاب القارئ من الاطلاقات الواردة في كلامه "اعتراف واسع" و "لا عدد لها" فكأن علم الحديث قائم على أحاديث مكذوبة ومزورة منسوبة بالباطل للرسول صلى الله عليه وسلم والأمر في حقيقته ليس كذلك. وإن أردنا بيان أقوال العلماء إن العديد من الأحاديث تم وضعها فلا بد من ذكر جهود العلماء عقبها ومنافحتهم لتمييز هذه الأحاديث وعدم تأثيرها على الجسم الأكبر لعلم الشريعة عند علماء السنة الأمر الذي لم يظهره براون في دراسته.

ولو درس براون علم النقد الحديثي من نشأته وتطوره ثم نضوجه لعلم أن الأمر منضبط عند علماء الحديث بصورة أكبر بكثير مما يوحي بحثه بها. قال أحمد في ترجمة سفيان بن عيينة: هو أثبت الناس في عمرو بن دينار[50] وقال أيضا: كنت أنا وعلي بن المديني فذكرنا أثبت من يروي عن الزهري، فقال علي: سفيان بن عيينة. وقلت أنا مالك بن أنس، وقلت: مالك أقل خطأ عن الزهري، وابن عيينة يخطئ في نحو من عشرين حديثا عن الزهري، في حديث كذا وكذا فذكرت منها ثمانية عشر حديثا، وقلت: هات ما أخطأ مالك، فجاء بحديثين أو ثلاثة، فرجعت، فنظرت فيما أخطأ فيه ابن عيينة، فإذا هي أكثر من عشرين حديثا. وقال أيضا: عند مالك عن الزهري نحو من ثلاثمائة حديث كذا عند ابن عيينة عنه نحو الثلاثمائة[51]. فهلا أشار براون لهذه الدقة التي قلّ نظيرها في سبر المرويات ومعرفة أثبت الناس في الشيوخ فكيف إذا انتقلنا إلى علم المدارات والجرح والتعديل والأصحاب وغيرها من علوم نقد الحديث لعلم أن إطلاق الضعف في كثير من المواطن في بحثه لا يسلم له به.

ويظهر هذا الخلط بوضوح حين أفرد عنوانا مستقلا لابن الجوزي ومدرسته الفكرية في مسألة العمل بالحديث الضعيف وغالب ما نقله من كلام ابن الجوزي وأتباعه هو في الموضوع. يقول براون:" مدرسة ابن الجوزي الفكرية في استخدام الأحاديث الضعيفة أثبتت تأثيرا بعد قرن من موته. على التحديد لقد سيطرت على الجدال الدائر حول الخلاف على صلاة "الرغائب" التي يبرر المدافعون عنها أنها وردت بمجموعة أحاديث ضعيفة أو موضوعة. ابن دحية ت633 العالم الأندلسي الذي ارتحل كثيرا كتب خلال إقامته بالقاهرة رسالة أدان فيها هذه الممارسة. مؤلفه تأثر بقوة بابن الجوزي الذي قابله ببغداد ومنحه لقب"فارس المنبر". مرددا كلام ابن الجوزي يتحسر ابن دحية كيف يهمل الرجال واجباتهم وعائلاتهم متبعين أحاديث مكذوبة مثل"من تفانى لله 40 يوما تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه"ويكرر مقولات أستاذه بالضبط في إنكار شرعية أي خير يُسعى إليه عبر نسبة أحاديث للنبي وهو لم يقلها". ويتابع براون:" العالم المشهور وخطيب دمشق"والقاهرة"عز الدين بن عبد السلام ت660، أيضا بنى على نقد ابن الجوزي للأحاديث الضعيفة والمكذوبة التي تستخدم لتبرير صلاة الرغائب. كتب بحثا حول أضرار السماح بهذه الصلاة وهو أن العلماء يعتمدون على أحاديث مكذوبة أو يسمحون للآخرين بهذا.. في كتابته الأكثر عمومية يدين الدمشقي أبو شامة المقدسي ت665 الابتداع في الدين ويقتبس باسهاب من شيخه ابن عبد السلام ومن ابن دحية، مؤكدا المقولة أنه لا يجوز التساهل بالكذب على رسول الله ". ويضيف في فصل خاص بابن تيمية قوله: "موقف ابن تيمية–كابن الجوزي– في العمل بالحديث الضعيف كان يسيطر عليه القلق والخوف لمنع جريمة دينية هي الكذب على النبي[52]".

قلت: بدا واضحا هنا أن براون يساوي بين الضعيف والموضوع وأنهماعنده سيان، لأن كلام ابن الجوزي فيما ينقله عنه هو في الموضوع وليس الضعيف. ثم هل مدرسة ابن الجوزي تختلف عما عليه أهل السنة؟ فجميع علماء الحديث يذهبون إلى أنه لا يجوز نسبة أحاديث للرسول صلى الله عليه وسلم وهو لم يقلها.

ثالثا: عيوب في النقل

بالإضافة للخلط نشأ عند براون بعض العيوب في النقولات، وما زال الباحث يعتقد أن ذلك بسبب عجمة اللسان ففي أحد المواضع يقول براون: "البيهقي (ت 458) يستشهد بالناقد الكبير يحيى بن سعيد القطان (ت198) بقوله: تساهل بأخذ روايات التفسيرممن لا تثق بأخذ الحديث عنهم. ويطرح مثالا الليث بن أبي سليم (ت143)، الضحاك بن مزاحم (ت105)، ومحمد بن السائب الكلبي (ت146). القطان يوضح هؤلاء لا يمتدحون على حديثهم لكن تفسيرهم يجب أن يكتب. هذه الروايات نُظر إليها بشكل منفصل عن احاديث الأحكام المسندة التي أطلق عليها الخطيب"مصدر الشريعة التي أخذ منها الأحكام"[53].

قلت: عند الرجوع لكلام البيهقي وجدته ينقل كلام يحيى بلفظ: "تساهَلُوا في التفسير عن قوم لا يوثّقونهم في الحديث. ثم ذكر

لَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ. وجويبر بن سعيد ، والضحّاك محمد بن السائب– يعني الكلبي، وقال: هؤلاء لا يحمد حديثهم ويكتب التفسير عنهم.

فهو أولا ترجم كلمة تساهلوا في قوله "تساهَلُوا في التفسير " بفعل أمر بمعنى كونوا متساهلين وليس نقلا ووصفا لفعل. ثانيا أسقط جويبر بن سعيد من النص. وترجم يكتب: يجب أن يكتب.

ثم أن الخطيب كان يتكلم عن الأحاديث المسندة أي المتصلة ضد المنقطعة إذا كان رواتها ثقات حيث جعل العنوان " فَأَمَّا الْأَحَادِيثُ الْمُسْنَدَاتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهِيَ أَصْلُ الشَّرِيعَةِ وَمِنْهَا تُسْتَفَادُ الْأَحْكَامُ وَمَا اتَّصَلَ مِنْهَا سَنَدُهُ وَثَبَتَتْ عَدَالَةُ رِجَالِهِ فَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ قَبُولَهُ وَاجِبٌ وَالْعَمَلَ بِهِ لَازِمٌ وَالرَّادَّ لَهُ آثِمٌ"[54].

رابعا: أخطاء في الاستدلال

وبسبب العجمة نتجت بعض الأخطاء في الاستدلال فنراه يقول مثلا:" علماء أهل الحديث لا يؤيدون استخدام أحاديث "يعرفون أنها موضوعة" لهذه الأغراض وأيضا لا يعتمدون على أسانيد فيها كذابون لهذه المجالات، كما وضح ابن أبي حاتم الرازي (ت 327) في مقدمته الثرية "التقدمة" أن الروايات غير المقبولة التي تستخدم للآداب الجميلة، الرقائق، الوعظ والترغيب والترهيب يجب أن تروى من رواة صدوقين، مع أنهم يمكن أن يخطئوا مرارا" قلت: طبعا فرق شاسع بين المكذوب والموضوع وبين الرواة الصدوقين الذين يمكن أن يخطئوا مرارا كما استشهد بكلام ابن أبي حاتم، مع الانتباه إلى أن كلام ابن أبي حاتم هو ما جاء في قوله في طبقات الرواة:" ثم احتيج إلى تبين طبقاتهم ومقادير حالاتهم وتباين درجاتهم، ليعرف من كان منهم في منزلة الانتقاد والجهبذة والتنقير والبحث عن الرجال والمعرفة بهم، وهؤلاء هم أهل التزكية والتعديل والجرح. ويعرف من كان منهم عدلاً في نفسه من أهل الثبت في الحديث والحفظ له والإتقان فيه، فهؤلاء هم أهل العدالة، ومنهم الصدوق في روايته، الورع في دينه، الثبت الذي يهم أحياناً وقد قبله الجهابذة النقاد فهذا يحتج بحديثه أيضاً. ومنهم الصدوق الورع المغفل الغالب عليه الوهم والخطأ والسهو والغلط، فهذا يكتب من حديثه الترغيب والترهيب والزهد والآداب، ولا يحتج بحديثه في الحلال والحرام. ومنهم من قد ألصق نفسه بهم ودلسها بينهم ممن قد ظهر للنقاد العلماء بالرجال منهم الكذب فهذا يترك حديثه ويطرح روايته ويسقط ولا يشتغل به[55]."

فمن ذكرهم براون هم من يكتب حديثهم في الترغيب والترهيب والزهد والآداب، ولا يحتج بحديثهم في الحلال والحرام. وليسوا الكذابين الذين ختم بهم ابن أبي حاتم والذين لا يقبل حديثهم حتى في هذه المسالك.

وفي موضع آخر يشير براون في الحاشية أن اسم بحثه هذا(Even If It's Not True It's True: Using Unreliable Hadiths in Sunni Islam) مأخوذ من كتاب المنذري، وعند الرجوع إلى موطن استدلاله نجد كلام المنذري الذي يقول فيه: الأَصْل الرَّابِع وَالْأَرْبَعُونَ/ فِي مَا يعدونه صدق الحَدِيث: حَدثنَا الْحُسَيْن بن عَليّ الْعجلِيّ الْكُوفِي قَالَ حَدثنَا يحيى بن آدم قَالَ حَدثنَا ابْن أبي ذِئْب عَن سعيد المَقْبُري عَن أبي هُرَيْرَة رَضِي الله عَنهُ قَالَ قَالَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم إِذا حدثتم عني بِحَدِيث تعرفونه وَلَا تُنْكِرُونَهُ قلته أَو لم أَقله فصدقوا بِهِ وَإِنِّي أَقُول مَا يعرف وَلَا يُنكر وَإِذا حدثتم عني بِحَدِيث تُنْكِرُونَهُ وَلَا تعرفونه فكذبوا بِهِ فَإِنِّي لَا أَقُول مَا يُنكر وَلَا يعرف[56]. ويتابع فيقول:"المدهش أن ابن ماجه ذكر قريبا منه في سننه" وعند الرجوع لسنن ابن ماجه وما ذكره ابن ماجة هو حديث أبي هريرة عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، أَنَّهُ قَالَ: "لَا أَعْرِفَنَّ مَا يُحَدَّثُ أَحَدُكُمْ عَنِّي الْحَدِيثَ وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ، فَيَقُولُ: اقْرَأْ قُرْآنَا! مَا قِيلَ مِنْ قَوْلٍ حَسَنٍ فَأَنَا قُلْتُهُ[57]"

فالاختلاف بين الروايتين واضح بل الاختلاف بين روايات الحديث كان كافيا أن يجعل براون يراجع استدلاله، فكما أنه نقل هذه الرواية فالأصل أن ينقل أقوال أهل العلم في الحديث حيث أن جل رواياته ضعيفة وقد قال البيهقي:" قَالَ الْبَيْهَقِيّ: قَالَ ابْن خُزَيْمَة: "فِي صِحَة هَذَا الحَدِيث مقَال لم نر فِي شَرق الأَرْض وَلَا غربها أحدا يعرف خبر ابْن أبي ذِئْب من غير رِوَايَة يحيى بن آدم وَلَا رَأَيْت أحدا من عُلَمَاء الحَدِيث يثبت هَذَا عَن أبي هُرَيْرَة". قَالَ الْبَيْهَقِيّ: وَهُوَ مُخْتَلف على يحيى بن آدم فِي إِسْنَاده وَمَتنه اخْتِلَافا كثيرا يُوجب الِاضْطِرَاب، مِنْهُم من يذكر أَبَا هُرَيْرَة، وَمِنْهُم من لَا يذكرهُ وَيُرْسل الحَدِيث. وَمِنْهُم من يَقُول فِي مَتنه: "إِذا رويتم الحَدِيث عني فاعرضوه على كتاب الله"، وَقَالَ البُخَارِيّ فِي تَارِيخه: "ذِكرُ أبي هُرَيْرَة فِيهِ وهم". ثمَّ أخرج الْبَيْهَقِيّ من طَرِيق الْحَارِث بن نَبهَان عَن مُحَمَّد بن عبد الله الْعَرْزَمِي عَن عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد عَن أبي هُرَيْرَة أَن رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم قَالَ: "مَا بَلغَكُمْ عني من حَدِيث حسن لم أَقله فَأَنا قلته". قَالَ الْبَيْهَقِيّ: هَذَا بَاطِل، والْحَارث والعرزمي مَتْرُوكَانِ، وَعبد الله بن سعيد عَن أبي هُرَيْرَة مُرْسل فَاحش، قَالَ: وَقد روى عَن أبي هُرَيْرَة مَا يضاد بعض هَذَا[58]."

وقد ذكر ابن حزم عددا من روايات الحديث فقال:" وأخبرني المهلب بالسند الأول إلى ابن وهب، حدثني سليمان بن بلال، عن عمرو ابن أبي عمرو، عمن لا يتهم، عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "إني لا أدري لعلكم أن تقولوا عني بعدي

ما لم أقل ما حدثتم عني مما يوافق القرآن فصدقوا به وما حدثتم عني مما لا يوافق القرآن فلا تصدقوا به وما لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقول ما لا يوافق القرآن وبالقرآن هداه الله" قال أبو محمد: وهذا مرسل وفيه عمرو بن أبي عمرو وهو ضعيف وفيه أيضا مجهول. حدثنا عبد الله بن ربيع، ثنا عبد الله بن محمد بن عثمان، ثنا أحمد بن خالد، ثنا علي بن عبد العزيز، ثنا حجاج بن المنهال، ثنا عبد الوهاب هو الثقفي، سمعت يحيى بن سعيد قال: أخبرني ابن أبي مليكة، أن ابن عمير حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس في مرضه الذي مات فيه إلى جنب الحجر فحذر الفتن وقال: "إني والله لا يمسك الناس علي بشيء إني لا أحل إلا ما أحل الله في كتابه ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه" قال علي: وهذا مرسل لا يصح. وفيما أخذناه عن بعض أصحابنا عن القاضي عبد الله بن محمد بن يوسف، عن ابن الدخيل، عن محمد بن عمرو العقيلي، حدثنا محمد بن أيوب، ثنا أبو عون محمد بن عون الزيادي، ثنا أشعث بن بزار، عن قتادة،عن عبد الله بن شقيق، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" إذا حدثتم عني بحديث يوافق الحق فخذوا به حدثت به أو لم أحدث" قال علي: وأشعث بن بزار كذاب ساقط لا يؤخذ حديثه. وحدثنا المهلب بن أبي صفرة، ثنا ابن مناس، ثنا محمد بن مسرور، ثنا يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، أخبرني الحارث بن نبهان، عن محمد بن عبد الله العرزمي، عن عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما بلغكم عني من قول حسن لم أقله فأنا قلته" قال علي: الحارث ضعيف، والعرزمي ضعيف، وعبد الله بن سعيد كذاب مشهور. وهذا هو نسبة الكذب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه حكي عنه أنه قال لم أقله فأنا قلته فكيف يقول ما لم يقله هل يستجيز هذا إلا كذاب زنديق كافر أحمق إنا لله وإنا إليه راجعون على عظم المصيبة بشدة مطالبة الكفار لهذه الملة الزهراء وعلى ضعف بصائر كثير من أهل الفضل يجوز عليهم مثل هذه البلايا لشدة غفلتهم وحسن ظنهم لمن أظهر لهم[59]". ويقول السباعي:" وفيه ما نقطع بكذبه وعدم صحته وهو قوله"فصدقوا به قلته أو لم أقله" والطرق المقبولة للحديث لا يوجد فيها قلته أو لم أقله[60].

ومن عجيب استدلالاته قوله: "خطاب علماء أهل السنة بعد 400هـ/1000م لرفع الحديث من حالة الوضع إلى حالة الضعف، كل ما على العالم فعله هو تقديم دليل أن له أصلا من السنة، وقد تحقق ذلك من خلال تحديد رواية واحدة حُكم عليها بوضوح أنها ضعيفة وذلك بدعمها بروايات أخرى ضعيفة أو من خلال تأييدها بأقوال الصحابة. فعلى الرغم أن حديث مسح الرقبة في الوضوء يقي من أغلال يوم القيامة قد حكم عليه كثيرون بالكذب، الملا علي القاري دلل على أنه فقط ضعيف، وأشار إلى قول صحابي في المعنى نفسه في كتاب أبي عبيد القاسم بن سلام ت224. واستدل–إضافة لما سبق– أن طريق الحديث المذكورة في مسند الفردوس للديلمي ت558 ضعيفة وليست موضوعة، فالحديث مقبول في الفضائل. وحديث"عسقلان إحدى الملكتين سيبعث الله منها 70000 يوم القيامة بلا حساب"عدّه العديد من العلماء موضوعا لأنه من زمرة الأحاديث التي تشيد بأماكن معينة، إلا أن ابن حجر العسقلاني ت852 يناقش أن المشكلة في راويه لا تصل لحد الكذب فالحديث يمكن قبوله في فضائل الأعمال"في هذه الحالة أماكن[61]."

هل يقول هذا من له اضطلاع دقيق على علم الحديث ونقده وعلله؟! هل هذا منهج علماء الحديث في رفع الحديث الموضوع؟! يغلب على الظن عدم تمكنه من علم العلل الحديثية أو عدم تملكه أدوات النقد الحديثي. وهذا بالإضافة إلى غيرها من الأمثلة التي تعد غير كافية للتدليل دون بيان تشدد وتساهل.. دون بيان كلام ناقد وكلام مصنف..دون بيان قيمة الباحث أو قيمة كتابه أو قوته العلمية أو موضوع الحديث وغيره من الأمور.

خامسا: عدم نقل النص بتمامه ومتعلقاته

عندما أراد براون أن يبين موقف ابن عبد البر من مسألة العمل بالحديث الضعيف قال إنه: "بين نقده لحديث يتعلق بغفران الخطايا في الحج يوم عرفة، وليلة مزدلفة يغفر الله للتجار، وبيوم منى لسائقي الجمال، ولأي أحد يطلب المغفرة عند آخر عمود لرمي الشيطان. فمع اعتراف ابن عبد البر أنه انفرد بروايته مجهول وهو خطأ فادح في الصحة إلا أنه يوضح أن "العلماء يسامحون أنفسهم في رواية الرغائب والفضائل من أي أحد. وأنهم يتشددون فقط في أحاديث احكام الشريعة"[62]. وعند الرجوع للنص الأصلي عند ابن عبد البر نجده يروي الحديث بسنده عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" إِذَا كَانَ يَوْمُ عَرَفَةَ غَفَرَ اللَّهُ لِلْحَاجِّ، وَإِذَا كَانَ لَيْلَةُ الْمُزْدَلِفَةِ غفر الله للتجار، اذا كَانَ يَوْمُ مِنَى غَفَرَ اللَّهُ لِلْجَمَّالِينَ، وَإِذَا كان عند جمرة العقبة غفر الله للسؤال، وَلَا يَشْهَدُ ذَلِكَ الْمَوْقِفَ خَلْقٌ مِمَّنْ قَالَ لا اله إِلَّا اللَّهُ إِلَّا غُفِرَ لَهُ". قَالَ أَبُو عُمَرَ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ، وَلَيْسَ مَحْفُوظًا عَنْهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَأَبُو عَبْدِ الْغَنِيِّ لَا أَعْرِفُهُ. وَأَهْلُ الْعِلْمِ مَا زَالُوا يُسَامِحُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي رِوَايَةِ الرَّغَائِبِ وَالْفَضَائِلِ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ وَإِنَّمَا كَانُوا يَتَشَدَّدُونَ فِي أَحَادِيثِ الْأَحْكَامِ[63].

فمع أنه لم ينقل متن الرواية بتمامها إلا أن الأهم هو أنه لم يذكر حكم ابن عبد البر على الحديث، وأنه أوضح مرتبة الرواية وأنها ليست محفوظة وهذا شيء يجدر الإشارة إليه عند نقل رأي ابن عبد البر في المسألة.

سادسا: عدم وجود ما أشار إليه في الموضع المشار إليه

ينقل براون أقوالا للبيهقي في بحثه تعزز ما يذهب إليه في مسألة العمل بالحديث الضعيف منها قوله: "في كتابه شعب الإيمان يكرر البيهقي أن"علماء الحديث يتساهلون في قبول الأحاديث المتعلقة بالدعاء والفضائل طالما لا يوجد في الإسناد كذاب" وقد قلبت عباراته النقدية في الموطن الذي أشار إليه في الشعب فلم أجد هذه العبارة فكيف يثبت تكرارها؟!

ووقفت في الدلائل على أقوال نقدية للبيهقي مثل:" عَلَى نَحْوِ مَا شَرَطْتُهُ فِي مُصَنَّفَاتِي، مِنَ الِاكْتِفَاءِ بِالصَّحِيحِ مِنَ السَّقِيمِ، وَالِاجْتِزَاءِ بِالْمَعْرُوفِ مِنَ الْغَرِيبِ، إِلَّا فِيمَا لَا يَتَّضِحُ الْمُرَادُ مِنَ الصَّحِيحِ أَوِ الْمَعْرُوفِ دُونَهُ فَأُورِدُهُ، وَالِاعْتِمَادُ عَلَى جُمْلَةِ مَا تَقَدَّمَهُ مِنَ الصَّحِيحِ أَوِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَ أَهْلِ الْمَغَازِي وَالتَّوَارِيخِ[64]" ولعل ترجمة المعنى هي العذر الذي يمكن أن نحمل كلام براون عليه.

ويقول براون في موضع قريب في بحثه من الموضع السابق:"يوضح البيهقي أن هناك نوعين من الأحاديث الضعيفة. النوع الأول الأحاديث التي رواها الكذابون وهذه لا يستدل بها لأي غرض. والنوع الثاني الأحاديث التي يضعفونها لسبب أقل مثل معاناة الراوي في الضبط لا يمكن استخدامها في التشريع لكن ممكن في التفسير والوعظ والمغازي"[65].

قلت: لم أقف على ما ذكر بنصه وقد بحثت طويلا–لأهمية العبارة ودلالتها المباشرة–، إلا أني وجدت للبيهقي نقلا يقول فيه:"وَهَذَا حَدِيثٌ يَنْفَرِدُ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ عُتْبَةَ، وَصَاحِبَا الصَّحِيحِ لَمْ يَحْتَجَّا بِهِ، إِنَّمَا اسْتَشْهَدَ مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ بِمُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ فِي أَحَادِيثَ مَعْدُودَةٍ، أَظُنُّهُنَّ خَمْسَةً قَدْ رَوَاهُنَّ غَيْرُهُ، وَذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الشَّوَاهِدِ ذِكْرًا مِنْ غَيْرِ رِوَايَةٍ، وَكَانَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ لَا يَرْضَاهُ، وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الْقَطَّانُ لَا يَرْوِي عَنْهُ، وَيَحْيَى بْنُ مَعِينٍ يَقُولُ: لَيْسَ هُوَ بِحُجَّةٍ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ يَقُولُ: يُكْتَبُ عَنْهُ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ . يَعْنِي الْمَغَازِي وَنَحْوَهَا . فَإِذَا جَاءَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ أَرَدْنَا قَوْمًا هَكَذَا . يُرِيدُ أَقْوَى مِنْهُ . فَإِذَا كَانَ لَا يُحْتَجُّ بِهِ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ فَأَوْلَى أَنْ لَا يُحْتَجَّ بِهِ في صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِنَّمَا نَقَمُوا عَلَيْهِ فِي رِوَايَتِهِ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، ثُمَّ عَنْ ضُعَفَاءِ النَّاسِ وَتَدْلِيسِهِ أَسَامِيَهُمْ، فَإِذَا رَوَى عَنْ ثِقَةٍ وَبَيَّنَ سَمَاعَهُ مِنْهُمْ فَجَمَاعَةٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ لَمْ يَرَوْا به بَأْسًا، وَهُوَ إِنَّمَا رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ عُتْبَةَ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ عَنْهُ وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَلَمْ يُبَيِّنْ سَمَاعَهُ مِنْهُمَا، وَاخْتُلِفَ عَلَيْهِ فِي لَفْظِهِ كَمَا تَرَى.[66]"

سابعا:عدم وضوح الفهم الشامل للفكرة المطروحة من قبل العلماء:

يستدل براون خلال تناوله لآراء العلماء التي رتبها تبعا لما يؤيد وجهته التي ارتضاها في البحث تبعا لأقوالهم وعملهم في مصنفاتهم. وقد استدل برأي النووي وأنه كان علامة فارقة في العمل بالحديث الضعيف في قوله:" يؤكد النووي في كتابه الذي انتشر بصورة واسعة وطبع مرارا–الأذكار– أنه يمكن العمل بالأحاديث الضعيفة طالما أنها ليست كذبا واضحا وموضوعها ليس الأحكام الشرعية، مثل فضائل الأعمال. في الحقيقة النووي يشجع الناس على العمل بأي حديث يجدونه في الفضائل" وينقل كلام النووي بالتنصيص فيقول على لسانه:"اعلم أنه يتوجب على أي أحد سمع بفضيلة من فضائل الأعمال حديثا أن يعمل به ولو مرة في حياته ليأخذ ثواب قول النبي في الحديث المتفق على صحته: إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم"[67].

ثم يتابع قوله :"من المثير للاهتمام أن النووي قدم فكرة جديدة هي: أنه يمكن العمل بالأحاديث الضعيفة حتى في التشريع شريطة أن يكون مستمدا من رغبة خاصة لعمل طاعة أو نافلة –من باب الحذر–. فمثلا إذا ورد بحديث ضعيف بكراهة نوع معين من البيوع أو من صور الزواج فممكن الامتناع عن هذه الأنواع بدافع التقوى"[68].

وعند الوقوف على كلام النووي حرفيا نجد التالي[69]:" اعلم أنه ينبغي لمن بلغه شيء في فضائل الأعمال أن يعمل به ولو مرّة واحدة ليكون من أهله، ولا ينبغي أن يتركه مطلقاً بل يأتي بما تيسر منه، لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته: " إذَا أَمَرْتُكُمْ بشيء فأْتُوا مِنْهُ ما اسْتَطَعْتُم".

قلت: هو إذن لا يتكلم عن الحديث الضعيف ولا يتكلم عن الحديث المتروك أو المكذوب، فمجال كلامه الحث على العمل بالفضائل إذا جاء فيها حديث فلا داعي لوضع كلام على لسانه لم يقله.

ويتابع النووي بفصل آخر قوله:" قال العلماءُ من المحدّثين والفقهاء وغيرهم: يجوز ويُستحبّ العمل في الفضائل والترغيب والترهيب بالحديث الضعيف ما لم يكن موضوعاً. وأما الأحكام كالحلال والحرام والبيع والنكاح والطلاق وغير ذلك فلا يُعمل فيها إلا بالحديث الصحيح أو الحسن إلا أن يكون في احتياط في شيء من ذلك، كما إذا وردَ حديثٌ ضعيفٌ بكراهة بعض البيوع أو الأنكحة، فإن المستحبَّ أن يتنزّه عنه ولكن لا يجب. وإنما ذكرتُ هذا الفصل لأنه يجئ في هذا الكتاب أحاديثُ أنصُّ على

صحتها أو حسنها أو ضعفها، أو أسكتُ عنها لذهول عن ذلك أو غيره، فأردتُ أن تتقرّر هذه القاعدة عند مُطالِع هذا الكتاب"[70].

وفي موضع آخر يقول براون:" السماح بالعمل بالأحاديث الضعيفة خارج نطاق الحلال والحرام لم يؤيدها الجميع، والمعارضون لها ليست أسماء بسيطة بأي حال. أكبر الخصوم البارزون لاستخدامها مطلقا لأي غرض هو مسلم بن الحجاج النيسابوري ت261. في مقدمة صحيحه المشهور يناقش مسلم مسؤولية عدم الكشف عن عيوب الأحاديث الضعيفة ويحذر الآخرين منها. علماء الحديث يجب أن يوقفوا أنفسهم لهذه المهمة نظرا لمسؤوليتهم الخطيرة في إرشاد العامة للصواب. وقال عن البقاء صامتا على بيان ضعف الأحاديث الضعيفة: "هنالك خطر عظيم في هذا، بما أن الأحاديث تتعلق بقضايا الدين فهي بالضرورة تحتوي الحلال والحرام، الأمر والنهي، الترغيب والترهيب. لذا إذا كان الراوي ليس معدن الصدق وثقة فسوف يرويها أحدهم يعلم هذا الخلل ولا يبينه للآخرين الذين يجهلونه، فيغش عامة المسلمين لأنه من غير المؤكد أن من سمعه سوف لا يعمل به". للأسف لا يوجد لدينا مقولات للبخاري ت256 في هذا الموضوع"[71].

قلت: عند الوقوف على كلام مسلم نراه في معرض ذكره "الكشف عن معايب رواة الحديث " بعد أن ذكر رواة متروكين وضعفاء جدا وكذابين وذكر أقوال النقاد فيهم، قال:" وَأَشْبَاهُ مَا ذَكَرْنَا مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي مُتَّهَمِي رُوَاةِ الْحَدِيثِ، وَإِخْبَارِهِمْ عَنْ مَعَايِبِهِمْ كَثِيرٌ، يَطُولُ الْكِتَابُ بِذِكْرِهِ عَلَى اسْتِقْصَائِهِ، وَفِيمَا ذَكَرْنَا كِفَايَةٌ لِمَنْ تَفَهَّمَ وَعَقَلَ مَذْهَبَ الْقَوْمِ فِيمَا قَالُوا مِنْ ذَلِكَ وَبَيَّنُوا، وَإِنَّمَا أَلْزَمُوا أَنْفُسَهُمُ الْكَشْفَ عَنْ مَعَايِبِ رُوَاةِ الْحَدِيثِ، وَنَاقِلِي الْأَخْبَارِ، وَأَفْتَوْا بِذَلِكَ حِينَ سُئِلُوا لِمَا فِيهِ مِنْ عَظِيمِ الْخَطَرِ، إِذِ الْأَخْبَارُ فِي أَمْرِ الدِّينِ إِنَّمَا تَأْتِي بِتَحْلِيلٍ، أَوْ تَحْرِيمٍ، أَوْ أَمْرٍ، أَوْ نَهْيٍ، أَوْ تَرْغِيبٍ، أَوْ تَرْهِيبٍ، فَإِذَا كَانَ الرَّاوِي لَهَا لَيْسَ بِمَعْدِنٍ لِلصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ، ثُمَّ أَقْدَمَ عَلَى الرِّوَايَةِ عَنْهُ مَنْ قَدْ عَرَفَهُ، وَلَمْ يُبَيِّنْ مَا فِيهِ لِغَيْرِهِ مِمَّنْ جَهِلَ مَعْرِفَتَهُ كَانَ آثِمًا بِفِعْلِهِ ذَلِكَ، غَاشًّا لِعَوَامِّ الْمُسْلِمِينَ، إِذْ لَا يُؤْمَنُ عَلَى بَعْضِ مَنْ سَمِعَ تِلْكَ الْأَخْبَارَ أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا، أَوْ يَسْتَعْمِلَ بَعْضَهَا وَلَعَلَّهَا، أَوْ أَكْثَرَهَا أَكَاذِيبُ لَا أَصْلَ لَهَا، مَعَ أَنَّ الْأَخْبَارَ الصِّحَاحَ مِنْ رِوَايَةِ الثِّقَاتِ وَأَهْلِ الْقَنَاعَةِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُضْطَرَّ إِلَى نَقْلِ مَنْ لَيْسَ بِثِقَةٍ وَلَا مَقْنَعٍ"[72]".

فالإمام مسلم لا يتكلم عن "العمل" بالحديث الضعيف كما استدل به براون، بل عن وجوب ذكرمعايب الرواة المتهمين الذين لا يصلح الاحتجاج بحديثهم وتجريم السكوت عن بيان معايبهم. كما أن الصحيح الذي يعتمده الامام مسلم هو ما يندرج تحته الصحيح والحسن الاصطلاحي عند من قسم أنواع الحديث لصحيح وحسن وضعيف، ناهيك عن أن الضعيف الذي يتكلم عنه علماء أهل السنة جميعا عندما يبحثون مسألة العمل بالحديث الضعيف هو الذي عيب ضبطه وفي حالات قليلة فكره لا معتقده، لكنهم قطعا لا يعنون مجروح العدالة أو الضعيف من جهة الصدق والأمانة فهذا لا يُعمل بحديثه اتفاقا. وعندما تناول براون بحثه في العمل بالحديث الضعيف لم يشر أبدا إلى أي أنواع الضعيف الذي يُعمل به عند أهل السنة.

ثامنا: يخلط بين "رواية" الحديث الضعيف في المصنفات وبين العمل به ونشره والاحتجاج به:

يخلُص براون في واحد من مباحثه إلى خلاصة مفادها أن:" واحدة من طرق تبرير رواية أحاديث ضعيفة هو روايتها بإسنادها كشهادة تُحلّ العالم من شبهة الإساءة للرسول. من عصر الخطيب البغدادي إلى الآن، علماء أهل السنة على أنه يمكن ذكر الأحاديث الضعيفة في أعمالهم إذا ذكر إسنادها ويترك تقييمها للقارئ. هذا ينقل المسؤولية من المصنف للقارئ ويقدم طريقة لعلماء المسلمين للتوفيق بين التزامهم الصحة وذكرهم كثير من الروايات الضعيفة في أعمالهم مثل مسند الفردوس[73]" وقد أشار لهذا في أكثر من موطن في كتابته.

قلت: هذا كلام يشوش القارئ ويعطيه فكرة أن علماء السنة متضاربين ليس لهم منهج علمي يسيرون عليه، فكأنه يقصد أن بعضهم يعد الحديث مكذوبا وآخرين يعدونه ضعيفا، وبعضهم خرج من الخلاف بذكر الاسناد للحديث خروجا من تحمل التبعات. ولا يشير براون إلى أن هناك طرقا متنوعة في خدمة الحديث الشريف عند علمائنا فمنهم من جمع فكان موسوعيا ومنهم من صنف على الأبواب الفقهية ومنهم من نقد وآخر علل وآخر بحث وفتش في الرجال، وما يتكلم عنه براون هنا هو واحدة من هذه الطرق وهي جمع الحديث وتدوينه في مصنفاتهم. وهذه تختلف تماما عن العمل بالحديث الضعيف أو الاحتجاج به.

تاسعا: الخلط بين المحدثين والفقهاء وغيرهم في المسألة دون دراسة للاختلاف المنهجي بينهم:

خلال بحث براون في مسألة العمل بالحديث الضعيف لا يقتصر في بحثه على علماء الحديث النقاد أو علماء الحديث الفقهاء بل قد يلجأ للاستشهاد بمن لم يُعرف عنه الاشتغال التخصصي بالحديث كقوله:" الموقف السائد المذكور سابقا –خاصة موقف علماء الحنفية مثل ابن الهمام– خلط الأحاديث في فضائل الأعمال، الترغيب والترهيب مع الأحاديث التي تعطي حكما للأعمال مثل الاستحسان كلها– توضع جانبا بعيدا عن حزمة الحرام والحلال"، قلت: ابن الهمام علامة في الفقه الحنفي لكن لا يعرف له اهتمام بالحديث الشريف ومسائله.

عاشرا: عدم وقوفه على أوزان علماء الحديث النقاد:

مما يميز براون استعراضه لآراء عدد كبير من العلماء، والتعريف بقيمته العلمية العالية –غالبا المجتمعية– باختصار، كما أنه تجول في مسألة العمل بالحديث الضعيف بأبعادها الزمنية والجغرافية والمذهبية . لكنه حقيقة لم يتنبه لمسألة غاية في الأهمية وهي وزن العالم في علم النقد الحديثي. ففي فصل خصصه لموقف ابن تيمية ومن تبعه أو خالفه يقول:" كما سنرى، كتابات ابن تيمية في العمل بالحديث الضعيف كانت مؤثرة بقوة، مثل المتقدم ابن قدامة.على كل حال، بعض الحنابلة المتأخرين بالرغم من ذلك دعموا تساهل أهل السنة واحد من تلك الشخصيات ابن رجب ت795، الذي رفض دعوة ابن تيمية السلفية الى رفض التقليد تماما كما رفض موقفه من الحديث الضعيف".

ويكمل:"على الرغم أنه ليس هناك دليل أن الفقيه الأندلسي أبو اسحاق الشاطبي ت790 قد تأثر مباشرة بأعمال ابن تيمية، فإن دراسته المسهبة عن البدعة تعكس الوحدة النوعية للأحكام الشرعية عند ابن تيمية. الشاطبي ينص –مثل العلماء المتقدمين– أن مروجي البدعة يبررون أفكارهم من خلال "اعتمادهم على أحاديث ضعيفة لا أساس لها منسوبة زورا للرسول، التي لا تُقبل من علماء الحديث ولا يبنى عليها–يعتمد عليها".

ثم يعود فيقول:" ومثل ابن تيمية فقد سمح الشاطبي العمل بالحديث الضعيف لتشجيع الناس لأداء الشعائر من خلال تخصيص فوائد خالدة لها، شريطة أن الشعائر ثابتة بطرق صحيحة وأن الحديث الضعيف ليس موضوعا"

قلت: هم الثلاثة أعلام أجلاء، وكل منهم في مجاله "الأدق" فارس لا يبارى. لكن إذا أنعمنا النظر في بحث براون نجده أعطى مساحة واسعة لابن تيمية –فقد جعله العنوان– ثم لأبي اسحاق الشاطبي، لكنه مر مرورا حييا على موقف ابن رجب، وبعبارة تُشعر القارئ معارضة ابن رجب – واحد من تلك الشخصيات – للعملاق ابن تيمية. وما هكذا تسير الأمور في المسائل العلمية، فابن رجب لمن اطلع على تأصيله لعلم العلل في شرحه لعلل الترمذي علم تمام العلم مكانته في الحديث والنقد الحديثي، وإطلاق حكم التساهل على موقف أهل السنة–يقصد به ابن حنبل وابن مهدي– بهذه الطريقة غير منصف. كما أنه هل يختلف ذلك الموقف الذي ذكره في آخر كلامه عن موقف أهل السنة الذي أطلق عليه براون التساهل؟!

وفي فصل آخر خصصه لابن حجر يقول:" ابن حجر العسقلاني والذي يُشار إليه غالبا من قبل الكتاب المسلمين بشرفيته (الحافظ)، يمثل ما أسماه فرانز روزنثال "المجمع النهائي لعلم الحديث". على الرغم أنه لا يزال يلقي بظلاله القيادية على التراث السني المتأخر إلى يومنا هذا، فقد كان ابن حجر في الحقيقة، متشككا من الإفراطات الصوفية المنتشرة. سمح فقط باحتفال بسيط بمولد النبي. وكان دائما يلقي الشك في سير الشيوخ الصوفيين".

قلت: ما هذا التعريف الغريب بابن حجر! لم يطلق عليه براون أي لقب كما أطلقه على غيره من العلماء. فهل ما يُعرف به ابن حجر واشتهر به هو شكه في شطحات الصوفية ومبالغاتهم في التعريف برموزهم؟! ثم عندما أراد ذكر موقف من العمل بالحديث الضعيف قال:" " موقف ابن حجر في العمل بالأحاديث الضعيفة هو التعديل المتحفظ لموقف أهل السنة في ضوء الاعتراضات التي أبداها ابن الجوزي وابن تيمية". وفي ظن الباحث أن هذا قصور في بيان دور ابن حجر وخدمته لعلوم الحديث. وهل ما قام به ابن حجر هو مجرد تعديل مع تحفظ لموقف أهل السنة أم أنه درس ما قيل فيه من النقاد وما مارسوه واستنتج هذه القواعد التي ما تزال إلى يومنا هذا لها الأثر البالغ في علوم الحديث؟ وأين غاب عن براون ما قاله القاري عنه والذي يبين فيه إمامة ابن حجر لمن اعتمدهم براون في بحثه إذ يقول عن ابن حجر:" إِمَام أَئِمَّة الْأَنَام كالسيوطي، وَابْن الْهمام، والسخاوي، والقسطلاني، وملا قَاسم الْحَنَفِيّ، وَغَيرهم من الْعلمَاء الْأَعْلَام"[74].

أحد عشر: عدم وقوفه على فوارق الاصطلاح عند المتقدمين والمتأخرين من علماء الحديث:

يطلق براون استشهاده أن العديد من الأحاديث المستخدمة في كتب الفقه المهمة عند أهل السنة ليست صحيحة وفقا لمعايير نقاد الحديث. ولذا –يقول براون– نجد الخطابي يؤكد أن معظم الأحاديث المستخدمة عند الفقهاء هي فقط "حسنة"[75]. يذكر براون هذا في طور استدلاله أن فقهاء المسلمين في القرنين الثاني والثالث الهجريين استدلوا بأحكام استخرجوها من أحاديث لم ترق لمعايير القبول لديهم في وثاقة إسنادها[76].

وكأنه غاب عن ذهنه أن الأحاديث في هذين القرنين لم تكن تقسم إلا إلى صحيح وضعيف أو مقبول ومردود، وأن الخطابي – وهو من أوائل من ذكر تعريف الصحيح والحسن وفرق بينهما– ذكر ذلك لا ليثبت أن الفقهاء قبلوا الحديث الضعيف بل ليبين أن معظم أحاديثهم تدور في المرتبة الوسطى "الحسن" التي يحتج بها كما يظهر جليا في كلامه. ولننقل كلام الخطابي لنقف بدقة على ما قاله:" ثم اعلموا أن الحديث عند أهله على ثلاثة أقسام حديث صحيح وحديث حسن وحديث سقيم. فالصحيح عندهم ما

اتصل سنده وعدلت نقلته والحسن منه ما عرف مخرجه واشتهر رجاله وعليه مدار أكثر الحديث وهو الذي يقبله أكثر العلماء ويستعمله عامة الفقهاء وكتاب أبي داود جامع لهذين النوعين من الحديث فأما السقيم منه فعلى طبقات[77]."

الخاتمة:

لا يمكن لعالم منصف إلا أن يحترم ويقدّر جهود الدكتور براون المميزة في خدمة الحديث الشريف والسنة النبوية، فقد سد البروفيسور براون ثغرة لم يستطع علماء الشرق سدها، وقد ألقى البحث الضوء على إيجابيات وسلبيات منهج الباحث الغربي المسلم، لكن لا بد من أمور أساسية في أثناء تعاملنا مع هذه النخب المسلمة الغربية ونتاجها البحثي:

أولا: معرفة المنهجية العلمية التي تربوا عليها وأوجه الاختلاف بينها وبين منهجيتنا.

ثانيا: لا بد من التواصل البحثي العلمي الجاد بين علماء المشرق والمغرب لتكون الإفادة متبادلة، ويخطئ من يظن أننا لا نفيد من منهجيتهم العلمية وخاصة في مسائل الإحصاء والمسح الشمولي العرضي.

ثالثا: يا حبذا أن يكون هناك مشاريع علمية بحثية مشتركة ليكمل كل منا جوانب الآخر.

رابعا: حبذا لو تتوجه عدد من أبحاثنا للغرب –مسلمين وغير مسلمين– فمن جهة مخزوننا غني جدا بإجابات لا يعلمونها لأسئلة تدور في أذهانهم، ومن جهة أخرى إقامة الحجة على من يريد الحق ويبحث عنه ولا يجد له مرجعا إلا كتب المستشرقين المغرضة.

والله ولي التوفيق

الهوامش

(1) http://www18.georgetown.edu/data/people/brownj2/cv.pdf
.اعتمد الباحث على صفحة البروفيسور الرسمية، وعلى سيرته الذاتية المكتوبة بيده. وعلى المقابلات التي أجريت معه

(2) للمزيد عن أبحاثه وهي كثيرة ينظر http://www18.georgetown.edu/data/people/brownj2/cv.pdf

(3) http://www.lastprophet.info/jonathan-brown-on-being-inspired-by-prophet-muhammad

(4) Burton, J, An Introduction to the Hadith, Edinburgh University Press, 1968.

(5) Motzki, H, The Origins Of Islamic Jurisprudence, Brill, Leiden,2002. Translated from the German by Katz, M.

(6) Brown,J.A.C, Hadith Muhammad's Legacy in the Medieval and Modern World.وقد تناوله تاريخية في كتابه

(7) Brown,J.A.C, Even If It's Not True It's True: Using Unreliable Hadiths in Sunni Islam.BRILL: Islamic Law and Society 18 (2011) 1-52. Page 50

(8) السيوطي، ع (1415هـ). تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، ط2، تحقيق: أبو قتيبة الفريابي، مكتبة الكوثر، 196/1.

(9) الشهرورزي، ا (1406هـ – 1986م). معرفة أنواع علوم الحديث، ويُعرف بمقدمة ابن الصلاح، ط1، تحقيق: نور الدين عتر، سوريا: دار الفكر ولبنان: دار الفكر المعاصر، ينظر الفهرس.

(10) السيوطي، ع (دت). تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، 196/1.

(11) شاكر، أ ابن كثير، إ (دت). الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، ط2، تحقيق: أحمد شاكر، لبنان: دار الكتب العلمية، ص20.

(12) يعتمد الباحث في هذه الدراسة كما ذكر على بحث براون الموسوم بـ Even If It's Not True It's True: Using Unreliable Hadiths in Sunni Islam.

(13) يذكر مثلا موقف العلماء ما قبل الحداثة وفي عصر الحداثة كما في ص4 ص5 من البحث ويستمر بنهجه التتبعي التاريخي في البحث كله.

(14) Brown,J.A.C, Even If It's Not True It's True: Using Unreliable Hadiths in Sunni Islam.BRILL: Islamic Law and Society 18 (2011) 1-52. Page 13.

(15) Brown,J.A.C, Even If It's Not True It's True: Using Unreliable Hadiths in Sunni Islam.ص

(16) المرجع السابق ص 13

(17) المرجع السابق ص 47.
(18) المرجع السابق ص14.
(19) المرجع السابق ص 48.
(20) المرجع السابق ص 20.
(21) المرجع السابق ص 12.
(22) المرجع السابق ص 29.
(23) المرجع السابق ص 12.
(24) المرجع السابق ص 12.
(25) المرجع السابق ص 11.
(26) Brown,J.A.C, Even If It's Not True It's True: Using Unreliable Hadiths in Sunni Islam. Page4
(27) المرجع السابق ص4.
(28) المرجع السابق ص5.
(29) المرجع السابق ص 19.
(30) المرجع السابق ص 32.
(31) المرجع السابق ص 33.
(32) المرجع السابق ص 8.
(33) المرجع السابق ص 3.
(34) المرجع السابق ص 3-4.
(35) المرجع السابق ص 49.
(36) المرجع السابق ص 5.
(37) الذهبي، م (1412هـ). الموقظة في علم مصطلح الحديث، اعتنى به عبد الفتاح أبو غدة، ط2، حلب: مكتبة المطبوعات الإسلامية، ص26.
(38) Brown,J.A.C, Even If It's Not True It's True: Using Unreliable Hadiths in Sunni Islam. Page 5
(39) المرجع السابق ص33.
(40) المرجع السابق ص33.
(41) المرجع السابق ص34.
(42) المرجع السابق ص34
(43) المرجع السابق ص5.
(44) تعرف العلة في اصطلاح المحدثين انها: عبارة عن أسباب خفية غامضة قادحة في صحة الحديث. ولخفائها وغموضها يعد العالم بالعلل من النقاد الكبار الذين اجتباهم الله لخدمة علم الحديث. يقول ابن الصلاح:" أَنَّ مَعْرِفَةَ عِلَلِ الْحَدِيثِ مِنْ أَجَلِّ عُلُومِ الْحَدِيثِ وَأَدَقِّهَا وَأَشْرَفِهَا، وَإِنَّمَا يَضْطَلِعُ بِذَلِكَ أَهْلُ الْحِفْظِ وَالْخِبْرَةِ وَالْفَهْمِ الثَّاقِبِ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ أَسْبَابٍ خَفِيَّةٍ غَامِضَةٍ قَادِحَةٍ فِيهِ" ينظر ابن الصلاح، ع (1986م). معرفة أنواع علوم الحديث (مقدمة ابن الصلاح)، ط2، تحقيق: نور الدين عتر، لبنان: دار الفكر المعاصر، سوريا: دار الفكر، ص90.
(45) Brown,J.A.C, Even If It's Not True It's True: Using Unreliable Hadiths in Sunni Islam. ص3.
(46) المرجع السابق ص8-9.
(47) ضبط المصطلحات في الدراسات الشرعية مهم جداً لما ينبني عليه من تحديد لمسار البحث وهناك أبحاث كاملة تعنى بذلك ينظر مثلا: البنا، ن (2011م).
(48) Brown,J.A.C, Even If It's Not True It's True: Using Unreliable Hadiths in Sunni Islam. ص3.
(49) المرجع السابق المقدمة.
(50) ابن أبي حاتم، ع (1952م). الجرح والتعديل، ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربي، المقدمة.
(51) حنبل، أ (1422هـ). العلل ومعرفة الرجال، تحقيق: وصي الله عباس، ط2، الرياض: دار الخاني، 28/1.
(52) Brown,J.A.C, Even If It's Not True It's True: Using Unreliable Hadiths in Sunni Islam. Page 21-22
(53) المرجع السابق ص6.
(54) البغدادي، أ (دت). الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ط1، تحقيق: د. محمود الطحان، الرياض: مكتبة المعارف 190/2.

(55) الرازي، ا (1952 م). الجرح والتعديل، ط1، الهند: طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1/6-7.
(56) المنذري، م (دت). نوادر الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، بيروت: دار الجيل، 1/ 233.
(57) القزويني، م (2009م). سنن ابن ماجه، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط1، عمان: دار الرسالة، 16/1.
(58) السيوطي، ع (1989م). مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، ط3، المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، 24/1.
(59) ابن حزم، م (دت). الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: أحمد شاكر، بيروت: دار الآفاق الجديدة، 2/77-78.
(60) السباعي، م (1949م). السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ط2، المكتب الإسلامي، دار الوراق، ص 186 -187
(61) Brown,J.A.C, Even If It's Not True It's True: Using Unreliable Hadiths in Sunni Islam. Page16-17
(62) المرجع السابق ص 10-11.
(63)القرطبي، ا (1387 هـ)، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ط1،تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، المغرب: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1/ 127.
(64)البيهقي، أ (1408 هـ - 1988 م). دلائل النبوة، ط1، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، 1/69.
(65) Brown,J.A.C, Even If It's Not True It's True: Using Unreliable Hadiths in Sunni Islam. Page11
(66) البيهقي، أ (1413 هـ - 1993 م)، الأسماء والصفات، ط1، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، قدم له: فضيلة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي، جدة - المملكة العربية السعودية: مكتبة السوادي، 2/319-320.
(67) Brown,J.A.C, Even If It's Not True It's True: Using Unreliable Hadiths in Sunni Islam. Page12
(68) المرج السابق ص12.
(69) النووي، ي (1414 هـ - 1994 م). الأذكار، ط1، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص8.
(70)المرجع السابق، ص8.
(71) Brown,J.A.C, Even If It's Not True It's True: Using Unreliable Hadiths in Sunni Islam. Page18
(72) النيسابوري، م (دت). صحيح مسلم بشرح النووي، (دط)، بيروت: دار الكتب العلمية 1/123..
(73) Brown,J.A.C, Even If It's Not True It's True: Using Unreliable Hadiths in Sunni Islam. Page17
(74) القاري، ع (دت). شرح نخبة الفكر، قدم له: الشيخ عبد الفتح أبو غدة، حققه وعلق عليه: محمد نزار تميم وهيثم نزار تميم، دط، لبنان: دار الأرقم، ص121.
(75) Brown,J.A.C, Even If It's Not True It's True: Using Unreliable Hadiths in Sunni Islam. 5 هامش ص
(76) المرجع السابق ص4.
(77) الخطابي، ح (1932م). معالم السنن، ط1، حلب: المطبعة العلمية. 1/6.

المراجع

البغدادي، أ (دت). الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ط1، تحقيق: د. محمود الطحان، الرياض: مكتبة المعارف 2/190.
البنا، ن (2011م). معنى التجويد في الحديث بين اللغة والاصطلاح، المجلد 38، العدد 1، مجلة دراسات-الشريعة والقانون، مجلة عمية محكمة تصدر عن عمادة البحث العلمي-الجامعة الأردنية.
البيهقي، أ (1413 هـ - 1993 م)، الأسماء والصفات، ط1، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، قدم له: فضيلة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي، جدة - المملكة العربية السعودية: مكتبة السوادي، 2/319-320.
البيهقي، أ (1408 هـ - 1988 م). دلائل النبوة، ط1، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، 1/69.
ابن أبي حاتم، ع (1952م). الجرح والتعديل، ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربي، المقدمة.
ابن حزم، م (دت). الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: أحمد شاكر، بيروت: دار الآفاق الجديدة، 2/77-78.
حنبل، أ (1422هـ). العلل ومعرفة الرجال، تحقيق: وصي الله عباس، ط2، الرياض: دار الخاني، 1/28.
الخطابي، ح (1932م). معالم السنن، ط1، حلب: المطبعة العلمية. 1/6.
الذهبي، م (1412هـ). الموقظة في علم مصطلح الحديث، اعتنى به عبد الفتاح أبو غدة، ط2، حلب: مكتبة المطبوعات الإسلامية، ص26.
الرازي، ا (1952 م). الجرح والتعديل، ط1، الهند: طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1/6-7.
السباعي، م (1949م). السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ط2، المكتب الإسلامي، دار الوراق، ص 186 -187
السيوطي، ع (1989م). مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، ط3، المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، 1/24.
السيوطي، ع (1415هـ). تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، ط2، تحقيق: أبو قتيبة الفريابي، مكتبة الكوثر، 1/196.

الشهرورزي، ا (1406هـ – 1986م). معرفة أنواع علوم الحديث، ويُعرف بمقدمة ابن الصلاح، ط1، تحقيق: نور الدين عتر، سوريا: دار الفكر ولبنان: دار الفكر المعاصر، ينظر الفهرس.

ابن الصلاح، ع (1986م). معرفة أنواع علوم الحديث (مقدمة ابن الصلاح)، ط2، تحقيق: نور الدين عتر، لبنان: دار الفكر المعاصر، سوريا: دار الفكر، ص90

القاري، ع (دت). شرح نخبة الفكر، قدم له: الشيخ عبد الفتح أبو غدة، حققه وعلق عليه: محمد نزار تميم وهيثم نزار تميم، دط، لبنان: دار الأرقم، ص121.

القرطبي، ا (1387 هـ)، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ط1،تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، المغرب: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1/ 127.

القزويني، م (2009م). سنن ابن ماجه، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط1، عمان: دار الرسالة، 16/1.

ابن كثير، إ (دت). الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، ط2، تحقيق: أحمد شاكر، لبنان: دار الكتب العلمية، ص20.

المنذري، م (دت). نوادر الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، بيروت: دار الجيل، 1/ 233.

النووي، ي (1414 هـ – 1994 م). الأذكار، ط1، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص8.

النيسابوري، م (دت). صحيح مسلم بشرح النووي، (دط)، بيروت: دار الكتب العلمية 123/1.

Brown,J.A.C, Even If It's Not True It's True: Using Unreliable Hadiths in Sunni Islam.BRILL: Islamic Law and Society 18 (2011) 1-52. Page 13. Burton, J, An Introduction to the Hadith, Edinburgh University Press, 1968.

Motzki, H, The Origins Of Islamic Jurisprudence, Brill, Leiden,2002. Translated from the German by Katz, M.

Brown,J.A.C, Hadith Muhammad's Legacy in the Medieval and Modern World.

"Contemporary Western Muslims" Hadith Scholars and their Methodology in the Study of Hadith Issues Jonathan Andrew Cleveland Brown and "Using Unreliable Hadīths in Sunni Islam" as a model

Nama Mohammad Albanna *

ABSTRACT

This paper discusses the most prominent Western Muslim scholar specialized in hadith in the United States of America as a model for contemporary Western Muslim scientists to identify the most prominent features of the methodology of their research in Islamic studies in general and hadith studies in particular. The researcher finds that efforts are not easy to be made by Western Muslim scholars to defend the general image of Islam and the particular image of hadith. Yet, A systematic difference that should be highlighted, is the adoption of a historical methodology to critically address the issues related to hadith away from other factors concerned by specialized Muslim scholars in the East, and the technical specialization of most of the issues of the science of the criticism of hadith (sanad and matn), the science of (ilal) and the study of the isnad and grad of the hadiths. The paper also discusses what is caused by the accuracy of the Arabic language from the disparity in dealing with these issues between the Eastern and Western scientists.

Keywords: Western and Eastern scholars; hadith; Western Muslim scholars.

*Faculty of Sharia, University of Jordan, Jordan. Received on 13/8/2017 and Accepted for Publication on 26/3/2018.